سيّدة العقارب

سلسلة الخيال العلمي (٧)

سيّــدة العقارب

قصص

د. عطيات أبو العينين

سيّدة العقارب

-١-

تسللت الشمس بين الغيوم بخجل، دغدغت وجنتيها برفق، فرشت رداءها الواسع في أنحاء الغرفة فتحت «مرام» عينيها بصعوبة بالغة وهي تتثاءب، تقاوم أشعة الشمس التي بسطت أجنحتها في أرجاء المكان، راحت «مرام» تتفقد كل شيء في غرفتها، وتلقي عليها نظرة وداع، فاليوم عرسها.

هذه الغرفة.. المليئة بالذكريات والأسرار والخبايا، هي الشاهد على ضحكاتها ودموعها. حبوها محاولات سيرها الأولى. ضفائرها المجدولة..... حب الطفولة البريء، لحظات جنونها وضعفها، وعنفوان شبابها وعبثها، شطحات تفكيرها.. ثمّ عادت إلى النوم..

انتفضت من نومها على صوت أمها وهي تزيح الستائر وتقول:

- هيا يا «مرام» انهضي.. لدينا أعمال كثيرة اليوم.

- يا حبيبتي يا ماما سوف أشتاق كثيرا إليك.

ضمتها الأم وقد لمعت في عينيها دمعتان:

- لست أدري كيف سأتحمل غيابك عني يا حبيبتي؟

-٢-

في المساء.. علت النغمات..تداخلت الأصوات.. ارتفعت الأبواق، راحا يرقصان على أنغام الموسيقى، نظر إليها حالما، هامساً في أذنيها :

- أحبك.

لم يرها من قبل بهذا التألق، وذلك الألق في عينيها، فلمعانها يحرك جوانح قلبه المشتاق تملكته الحيرة فتلك النظرة الزائغة الحائرة، بين الرغبة والخجل، بين الإقدام والتراجع، لم يدر ما هذا الضوء الشارد في عينيها الليلة؟! وما هذا النهر الجارف من الحنان، يخشى على نفسه اليوم من طوفان الحب الذي يكاد يقتلعه من عالم مادي إلى ذلك العالم الذي يصبو إليه كل حبيبين.

لم يكن الحب هو الذي جمع بين قلبيهما فقط، لكن هناك ثمة تفكير مشترك جمعهما، منذ رآها في الجامعة حيث التقيا في المعمل المركزي بكلية العلوم قسم الحشرات، لفتت انتباهه بعينيها الواسعتين وخفة ظلها وشخصيتها الطاغية التي تلفت انتباه كل من يراها للوهلة الأولى.. كان «هيثم» يفكر في طريقة للتعرف عليها.. حتى جاءت الصدفة من تلقاء نفسها.. أثناء تشريح ضفدع راح يثبت أطرافه، بينما كان هو مضطرب الوجدان، فإذا بالضفدع يفلت من يده ويقفز على صدرها فتطلق «مرام» صيحة فزع فيعج المكان بالضحك..

وجد نفسه مدفوعا إليها كسيل جارف، صارحها بحبه فبدا عليها التردد، خاصة وهي تعلم تفكير والديها في زوج المستقبل..

فمرام تبدو من هيئتها أنها فتاة أرستقراطية، من عائلة ثرية، معروفة وسط زملائها، فمن ذا الذي لا يعرف عائلة «الدويني» أكبر العائلات، ومن القلة القليلة الذين لهم سطوة على اقتصاد البلد، علاوة على أن والدها «طارق الدويني» وكيل أول وزارة الاقتصاد ومرشح للوزارة في التغيير الوزاري الجديد..

أما «هيثم» فشاب مجتهد من عائلة بسيطة ليس له باع في عالم الاقتصاد أوغيره وبالرغم من عدم التكافؤ المادي بينهما إلا أنه لفت نظر «مرام» لأول وهلة، فبادلته حبا بحب..

أسرت «مرام» بحبها الكامن لوالدتها.. فراحت الأم كعادتها تستفسر عنه وعن عائلته ووسطه الاجتماعي ومستوى عائلته المادي.. وعندما أخبرتها «مرام» بصراحة بأنه زميلها في الجامعة رفضت بشدة.. وقامت والدتها على الفور بنقل رغبتها لوالدها، الذي لم يكن محتاجا للشحن ضد هذا الفتى فبمجرد معرفته لأصله وفصله وأنه لا يساوي شيئا في عالم الأرقام والبنكنوت ثارت ثائرته وأقسم أنه لا يمكن أن يرمي ابنته في هذا المستنقع. علاوة على سبب آخر ربما حاول أن يخفيه فوالد هيثم خصم سياسي له.. امتهن العمل النقابي للعمال وطالب بحقوقهم ووقف في وجه رجال الأعمال ومنهم والد «مرام».

ومع ذلك اتفقت «مرام» مع «هيثم» أن يمشي في الطريق الصحيح ويدخل البيت من بابه، ولم تخبره برفضهم القاطع له عسى أن يقبلوه زوجاً لها إذا ما تقدم وتحدثوا معه.. فتقدم لخطبتها وفوجئ «هيثم» برفض عنيف من الأب والأم..

وبدأت الأم تتخذ ضد ابنتها كل الإجراءات التي تعرقل لقاءهما.. فإذا تأخرت «مرام» في الخارج تحاصرها بالأسئلة.. وبدأت تضيق عليها الخناق مما نغّص حياة «مرام» فقد كانت تتمنى أن ترحب أسرتها بهذا الوافد الجديد على العائلة.

ومنذ اتخذت أسرة «مرام» هذه الإجراءات معها وقد استحالت لشبح يتحرك على الأرض فقد أضربت عن الطعام والشراب، وأصبحت ساهمة شاردة طول الوقت كأن الموت يزحف إليها بخطوات سريعة.

لاحظ جميع زملاء وزميلات «مرام» ذبولها وتشتتها وخصوصاً أنها بدأت تتغيب عن المحاضرات التي لم تتأخر عنها يوماً، حتى أساتذتها وخصوصاً دكتور «محمود شكري»

الذي يعتز بها كأنجب تلميذاته..

اقترب يوما دكتور «محمود شكري» من «مرام» وسألها:

- هل هناك مشاكل صحية تعانين منها؟

أجابته «مرام» بالنفي. فعاد يسألها:

- هل هناك مشاكل عائلية؟

وعادت تكرر عليه نفس الإجابة بالنفي.

قال لها:

– اسمحي لي يا «مرام» أن أتدخل في حياتك الشخصية أنا أعلم ارتباطك بزميلك «هيثم» هل حدث بينكما شيء؟

وكأنه وضع يده على الجرح.

أجهشت «مرام» بالبكاء وراحت تقص عليه موقف أسرتها من هذا الزواج.

قال لها:

– بالرغم من أنني أوافق أسرتك على هذا الرأي بالرفض، ولكن ليس من وجهة نظرهم، صحيح أن «هيثم» ليس من طبقتك، وهذا مثار لخلافات كثيرة في المستقبل يا ابنتي إلا أنني معترض على هذا الارتباط لسبب آخر:

مسحت دموعها وهي تقول له:

– ما سبب رفضك يا دكتور؟

أجابها:

– أجدك يا «مرام» مجتهدة.. طموحة.. الأولى على دفعتك دائما، أما هذا الهيثم فهو طالب لا يتوفر فيه طموحك العلمي، كل ما يتمناه أن يعين معيدا في القسم ولكن أنت لك طموحات علمية أكبر من ذلك بكثير، وهذا شيء مخيف يا بنيتي أن تربطي مستقبلك بشخص أقل منك طموحا، وربما يكون طامعا في ثروتك ومكانة عائلتك الاجتماعية والاقتصادية.

شردت «مرام» قليلا وراحت تقول له:

– ولكن الحب يصنع المعجزات يا دكتور، «هيثم» يحبني وأنا كذلك وأعتقد من الممكن أن أدفعه لأن يكون طموحاً.

يجيبها بصوت واثق لخبير محنك خبر الدنيا وفهمها، وعلى فمه ابتسامة:

– يا «مرام» لا أحد يدفع آخر لأن يكون طموحا، لا بد أن ينبع الطموح من داخله.

– ولكن إذا كنت مقتنعة به فيمكن أن أتوسط بينك وبين والدك ولكن حذار فلن يدفع ثمن التجربة سواك.

سعدت «مرام» بهذا الرأي وأجابته على الفور.

– بالطبع يسعدني ذلك يا دكتور محمود، وأنا على استعداد تام لتحمل كل العواقب طالما أنني قررت الاختيار..

كانت اللحظات القليلة التي يختلسانها من الزمن لا يدور بينهما حديث بل يجلسان في شرود وصمت ينظران لبعضهما البعض دون أن ينبسا بكلمة.. وعندما تعود إلى البيت تظل حبيسة حجرتها لا تخرج منها حتى اليوم التالي حاولت الأم إخراجها مما هي فيه دون جدوى..

خشيت الأم على ابنتها الوحيدة، وراحت تتقرب وتتودد إليها محاولة هدم الجدار الذي نشأ بينهما منذ أعلنت رفضها لهذا الذي

يدعى «هيثم».. وأخيرا استجابت لرغبتها على مضض، بل راحت تدعو زوجها أن يلين عندما أشرفت ابنتها على الهلاك..

أخيرا وافق وهو مضطر خوفا على حياة ابنته الوحيدة، وخصوصاً أن دكتور «محمود شكري» قد قابله وشرح له حالة «مرام» التي تدهورت دراسياً ونفسياً وهي على وشك التخرج وإذا ظلت على هذه الحال يمكن أن يتراجع ترتيبها ويضيع عليها التعيين في الجامعة وهي المشهود لها بكفاءتها طوال سنوات الكلية.

رضخ «طارق الدويني» لطلبات قلب ابنته الوحيدة دون أن يقتنع تحت ضغط «دكتور محمود» وخوف الأب على ابنته من ضياع مستقبلها الذي ظل يحلم به معها طوال عمرها، واشترط عليهما أن يتحملا بنفسهما المسؤولية وأنه لن يساعدهما أو يقف بجوارهما في أي شيء، وترك لهما تحديد موعد الزواج.

كانت صدمة قاسية على كل من والدي «مرام» أن تتزوج ابنتهما الوحيدة التي خرجا بها من الدنيا على غير رغبتهما، وكانا يتمنيان لها حياة هادئة مستقرة مع زوج من مستواها ومن نفس وسطها الاجتماعي.

لم يصدق «هيثم» نفسه، فبعد لحظات قليلة سيخلد كل منهما للآخر، يبثه من نبع الحب الذي لا ينضب، شلال قلبه الذي يفيض حبا وهياما..

راح «هيثم» يراقص عروسه «مرام»، يحتضن تفاصيل وجهها المستدير، فيضفي عليها جمالا روحيا، تشابكت أيديهما في عناق طويل، تبوحان بما في قلبيهما من نغمات تنساب عبر مسامهما شلالاً من شوق لا يستطيعان أن يوقفاه..

فجأة.. تركزت عيناه على صدرها، أطرقت في خجل:

- هيثم.. الناس تنظر إلينا ادخر نظراتك حتى نكون وحدنا.

لم يرد «هيثم» تسمرت يداه، تشنجت أطرافه، تصبب جبينه عرقاً غزيراً، أمارات الفزع الرهيب في نظراته المصوبة إلى صدرها، ذيل رفيعٌ بلون أسود، زوج من كماشات صغيرة ومخالب كبيرة راح يعتلي تضاريس صدرها النافر.. حاول أن يصرخ لكن صرخاته ذهبت أدراج الرياح، زم شفتيه، مطهما من جديد، حاول أن ينبهها وينبه من حوله، وقفت «مرام» مندهشة لا تدري ماذا أصاب «هيثم» وأصاب جميع من في الحفل وانطلقت صيحات مرعبة:

- عقرب.. عقرب..

ندت عنها صرخة مدوية، وتحول حفل الزواج إلى صراخ.. جرى «هيثم» يحاول إنقاذ عروسه، لم تستطع الأم أن تتمالك نفسها فسقطت مغشياً عليها.. ساعات عصيبة تلك التي حاولوا فيها نجدتها.

تجمع الكثيرون في المستشفى وهم في حال من الترقب، همست إحدى السيدات.

- فأل سيئ.. وجه العريس شؤم عليها .

أجابها زوجها :

- اصمتي.. لا نريد أن ينفض الجمع بسبب انفلات لسانك.

مر الوقت بطيئا على «هيثم»، وزاد من توتره أنه يقف أمام غرفتها يترقب ما يحدث يتمنى أن يطمئن عليها ، ولكن زاد من قلقه ما حدث، فقد خرجت إحدى الممرضات مسرعة وقد تصبب العرق على جبينها ، ولم ترد عليه عندما سألها عن حالة مرام، ثم عاودت الدخول في حركة عصبية سريعة، بعد أن أحضرت بعض الزجاجات من صيدلية المستشفى ودخلت مسرعة.

سمع «هيثم» بعض الممرضات وهن يهمسن:

- ليت الدكتور يستطيع إنقاذها

- ادعي لها ألا يكون حظها مثل آخر حالة تسمم، فلقد لفظ أنفاسه مباشرة بعد أن حقن بالمصل..

ارتفعت دقات قلبه، كأنها تنذره بالخطر المحدق بحبيبته، فجأة انفتح باب غرفتها وخرج منها الطبيب الذي أخذ يربت على كتفه وهو يقول:

– لقد استطعنا أن نسيطر على الموقف وانتهى الأمر.

«هيثم» وهو يلهث:

– هل نستطيع أن نأخذها معنا الآن يا دكتور؟

ضحك الطبيب وهو يقول:

– لقد أخذت مصلا قويا وحقنة مهدئة، وستكون في حال جيدة في الغد.

راح يحدث نفسه لماذا اختار العقرب اليوم بالذات ليلدغ حبيبته.. إنها مؤامرة على حبهما. هل اختارها ليحبط الفرحة في قلبيهما؟ أم استكثرت الأيام سعادة الحبيبين دون معاناة؟

يستشعر غصة في حلقه بطعم المر يبتلعها في صمت.

-٣-

ما إن بزغ نور الصباح، حتى دبت الحركة في المستشفى، ووقف «هيثم» بباب غرفة «مرام» في المستشفى ينتظر الطبيب المعالج ليسمح لهما بالانطلاق إلى بيتهما السعيد، سبقته إلى بابها والدتها وقد أحضرت لها ملابس تناسب الصباح، واستأذنته أن تبدل ثيابها، وبرغم أنه حاول معها أن تترك «مرام» بملابس الزفاف، حتى يدخلا معا منزلهما كما حلما إلا أنها حرمته من ذلك الحلم رغماً عنها.. لم تستطع والدة «مرام» أن تتخلص من شعورها نحو «هيثم» فجاء كلامها

معه جامداً قاسياً .. زاد من ضيقه تصميم والدة «مرام» على ذهابهما معاً لمنزل العائلة عدة أيام حتى تتأكد والدتها من تماثلها للشفاء، بالرغم من عدم رضى «هيثم» إلا أنه لم يحب أن يبدأا حياتهما بمشكلة مع والدة «مرام» خصوصا إذا تعلق الأمر بصحة حبيبته.

ما إن رأته «مرام» حتى توردت وجنتاها بعد أن غاضت الدماء منها منذ الأمس، همست في أذنه:

- آسفة يا حبيبي أن حدث هذا ليلة عرسنا.

- لا عليك حبيبتي المهم عندي هو سلامتك.. هيا بنا..

صعدت «مرام» إلى غرفتها، نظرت إلى كل شيء حولها وهي تقول:

- لم يكن في حسباني عودتي السريعة لغرفتي بعد أن ودعتها بالأمس القريب

أجابها:

- ربما لي حظ أن أدخل نفق الأحلام. وأعبر سراديب الذكريات، وأعوم في بئر الأسرار

ضحكت «مرام» وهي تقول:

- بئر الأسرار مرة واحدة، لم يكن لي في أي يوم من الأيام سرٌّ أخفيه، كنت أتعجب من البنات اللواتي يحكين أسرارهن لبعض القريبات أو الصديقات.

تسكت قليلا، إذ خطر لها خاطر فسألته:

- هل ما زلت غاضبا من ماما، لتصميمها أن نظل هنا لعدة أيام.

لمعت عيناه بحبّ :

- المهمّ أن أنعم بقربك....

يسبحان في موجة من المشاعر، نسيا فيها ما حدث بالأمس، والذي لم يخطر على بالهما في يوم من الأيام.

همس في أذنها :

- تعالي يا حبيبتي لنسترح قليلاً، فلم أذق بالأمس طعم النوم وأنا أجدك ترقدين بين الحياة والموت..

- هل ستنام بملابسك؟

أجابها :

- لا يهم..

دق باب الغرفة، كانت والدة «مرام» جاءت تحمل بعض الملابس محاولة أن تخفف من لهجتها معه وهي تقول:

- معذرة يا «هيثم» لقد أتيت لك ببيجامة أرجو أن تكون مناسبة لك..

أجابها في اقتضاب:

- شكرا لك..

نظرت إليه ثمّ تابعت تقول :

- «هيثم» أرجو ألا تكون غاضباً من تصميمي على مبيتكم هنا.. فليس الأمر بيدي، إنه يتعلق بوحيدتي «مرام».

رق قلبه واقترب منها وقبل رأسها :

- لا عليك. المهم أن نطمئن على «مرام».

❖❖❖

-٤-

غط «هيثم» في نوم عميق، ولم يوقظه سوى أنامل «مرام» وهي تعبث بخصلات شعره

وتهمس في أذنيه:

- وحشتني يا قاسي عشر ساعات نوم متواصل.

فتح «هيثم» عينيه وجذبها نحوه وهو يقبلها بعمق.

– آسف يا حبيبتي كنت محتاجاً بالفعل لنوم عميق يعوضني عن قلق وانفعال الأمس

ردت بدلال:

– ومن يا ترى سيعوضني عن شهر العسل الذي فقدت منه أربعاً وعشرين ساعة كاملة

أخرج لها من أسفل الوسادة ظرفاً وقال لها :

– سيبدأ شهر العسل عندما نتأكّد أنّك على ما يرام.

لم تصدق نفسها عندما وجدت قبالتها تذكرتين طيران لشرم الشيخ، احتضنته بقوّة وهي تقول:

– أشكرك يا حبيبي. بالفعل كنت أتمنى أن أذهب لشرم الشيخ وأستمتع بالطبيعة الساحرة هناك..

انطلقت «مرام»و «هيثم» لقضاء شهر العسل بعد أيّام.

أقلعت الطائرة بهما ..

مع «هيثم» كل شيء جديد ..غريب.. مختلف بمذاق الحب، ذلك المذاق الفريد من نوعه يمنحك قوة تواجه بها العالم من حولك دون أن تأبه بالجميع.

شعرت «مرام» أن قلبها ترك عالم الواقع وراح يحلق في خيال الحب، إلى خارج حدود الشمس، لا بل تعدى مجرات الكون، وانطلق في عالم سحري أسطوري، طالما حلمت به هناك على أرض شرم الشيخ أرض الأحلام.

الفرحة تقفز من عينيها:

- متشوقة لأرى خليج نعمة.

- نستريح قليلا وننزل يا مليكتي.

تتأبط ذراعه فخورة بأنها تنتمي لهذا الرجل حبيبها، الذي منحها قلبا فمنحته عالم الحب. بصلة إلا إلى الذاكرة والماضي.

-٥-

وجدت «مرام» قارباً زجاجياً، أرضيته وجوانبه من الزجاج، أشبه بغواصة تحت البحر، أما قاعه من زجاج سميك شفاف، هبط إلى القاع ما لا يقل عن عشرة أمتار، فسبحت وكأنها إحدى السمكات المرجانية الملونة، بألوان تجذب الأنظار إليها، شعرت «مرام» أنها تسبح في الأعماق، تغوص السمكات يميناً، فتتحرف معها يميناً، تخطف ناظريها، وما تلبث أن تنحرف يساراً، ليخفق قلبها لجمال ألوانها وروعة منظرها، ورشاقة حركتها وكأنها راقصة بالية محترفة.

لم تشعر «مرام» بمرور ثلاث ساعات هي عمر الرحلة للأعماق. صعدت الغواصة إلى السطح، كأنها أشبه بحوت يؤدي حركات بهلوانية على نغمات مدربه الأثير، كانت «مرام» أشبه بطفلة غريرة، لا تستطيع السيطرة على مشاعرها الطفولية تقفز الفرحة من عينيها تحتضن بها «هيثم» فيجذبها نحوه لتسكن في صمت أبلغ كثيرا من الكلام.

ساعات عاشتها إلى جانب هيثم، وقد لفهما الحب بغلالة رقيقة من السكينة والهدوء..

قطع الصمت بقوله:

- هيا بنا نذهب للعشاء.

- بالفعل أشعر بالجوع الشديد..

استقلا الأتوبيس إلى المطعم، اتخذ المكان طابعا بدويا بدا من خلال الخيام متعددة الألوان والأشكال التي تتميز بألوانها معبرة عن ألوان البيئة البدوية..

داخل تلك الوديان التي تسحبك رغما عنك، عبر تعرجاتها ودروبها، كأنها امرأة لعوب تجرك للسقوط في هاوية سحيقة، ولا تستطيع أن تربأ بنفسك أو تنأى بها دون الولوج في أغوارها مهما حاولت الاحتماء منها.

لم تشعر «مرام» قبل الآن بهذا النور الذي يغمر حياتها، ترى كل شيء ناصعا منيرا كفلقة الصبح. عالم جديد تعيشه مع «هيثم»، بكل ما فيه..

أطلت النجوم في السماء تشاركهما هذه الليلة الرائعة، وما عليهما إلا أن يختارا الخيمة وسيأتي إليهما الشاي والعشاء البدوي اللذيذ .

راحت «مرام» تتحسس كل شيء بأناملها الرقيقة، وهي في غاية السعادة، كأنها طفل رضيع يحاول أن يستكشف العالم بعيون أمه الوجلة، وقلبها المضطرب الذي يخفق خوفاً مع كل عثرة من عثرات طفلها ..

تاهت مع الزخارف والتشكيلات، وكأنها في متحف فنان تشكيلي، برع في وضع لمساته الفنية. لتبدو أكثر طبيعية، فيصعب عليك أن تتبين الخيال من الواقع، أو تفصلهما عن بعضهما .

فرشت الخيمة بأبسطة ووسائد بدوية، غاية في الجمال بنقوشها الهندسية وتناسق ألوانها وتمايزها في تعشيقات متراكمة متداخلة بتوليفة تشكيلية غاية في الروعة والأناقة، مع الزخارف، كأنه تزاوج بين التراث والفن..

اندمجت «مرام» بهذا الجو المفعم بالحب والفن معا وافترشت» و «هيثم» الأرض ليكونا على سجيتهما ، بعيدا عن التكلف والاصطناع.

قال لها شارداً :

- كأننا ولدنا اليوم.. كل شيء على طبيعته..

تلفتت «مرام» حولها :

– أتمنى أن أقضي بقية عمري هنا في هذا الجو الساحر، بعيداً عن أضواء المدينة وصخبها، أنعم بجمال النجوم والسماء الصافية، فلم نعد نجد الوقت لرؤيتها، ولن تسمح لك المباني العالية بأن تناجي النجوم في ليلك، ولم يعد الزحام يحترم عزلتك..

تنهد «هيثم»، ملأ رئتيه بالهواء النظيف وقال لها:

– كل شيء يدعونا للحياة، فهيا ننهل منها، ونتهيأ لالتقاط ملايين الألوان المنسجمة والتي تشكل لوحات طبيعية لجبال ووديان، ربما تختبئ هنا أو هناك، دون أن تسجلها الكثير من خرائط الدنيا علاوة على أذن تستمع لموسيقى روحية، تعزفها شلالات المياه وخرير الأنهار الذي يغذي سهولنا ووديانا ويحملها الهواء العليل.. في كل مكان قصة حب نتنفسها ويتنفسها جميع أهل أرضنا.

– هل تصدقين حبيبتي أنه قد مر أسبوع العسل..

– أسرع مما تخيلت.. مر كالبرق..

– أعدك أن تكون كل أيامنا معا كهذا الأسبوع.

كانا قد انتهيا من إعداد حقائب سفرهما للعودة إلى بيتهما الجديد.

❖❖❖

استيقظت «مرام» مع شروق الشمس في بيتها وهيثم، أيقظت «هيثم» فاليوم موعد عودتهما إلى الكلية، تناولا طعام الفطور، عادت لتكمل زينتها..

فتحت «مرام» دولاب ملابسها، وما إن سحبت فستانا جديدا من على المشجب، حتى صاحت صيحة مدوية أربكت «هيثم» وجمدته مكانه.

سمعها تصيح:

- عقرب.. عقرب

لم يصدق «هيثم» وراح يقول لها:

- يبدو أن أعصابك ما زالت متعبة، ولم تستطيعي أن تنسي ذلك الموقف المؤلم ليلتها

ردت بعصبية:

- انظر يا «هيثم» جيداً، ها هو أمامك بذيله الرفيع الأسود، وزوج الكماشات الصغيرة ومخالبه الكبيرة..

- ابتعدي.. يا «مرام».. ابتعدي.

خلع حذاءه سريعاً هوى عليه كصاعقة، استطاع أن يفلت منه، انزوى في ركن الغرفة، حاصره مرة أخرى، اقترب من «هيثم»، كاد أن يلدغه، أرعبه منظره، وهو منتصب الذيل، مستعداً للانقضاض، ولكن «هيثم» أصر ألا يفلت منه هذه المرة، لم يترك له فرصة للمراوغة انقض عليه.. سحقه تحت قدميه.. تأكد من موته.

انهار «هيثم» على أقرب مقعد ووجهه يتفصد عرقا بينما كانت «مرام» مذهولة مما رأت فألقت بنفسها على الفراش وهي تنظر لهيثم بشرود ولا تستطيع الحديث، وقد امتقع وجهها وتصبب العرق من جبينها..

نظر «هيثم» إلى «مرام» بطرف عينه محاولاً تهدئتها وهو يقول لها :

الحمد لله لم يصبك بسوء..

تصمت «مرام» برهة ثم تقول:

– جدتي لديها خبرة بالعناكب وتعرف الكثير عنها، يجب أن نستشيرها فيم يجب فعله لعلها تفيدنا في الأمر.

❖❖❖

-٧-

دق جرس الباب كانت جدة «مرام» فزعة بعد معرفتها بما حدث لحفيدتها على مدى يومين متتاليين وصاحت:

- هل تم إنقاذها، هل قمتم بغسل المكان بالماء والملح؟

ردت مرام:

- اهدئي يا جدتي.. أنا بحالة جيدة، ولكن الأمر تكرر وهذا ما يقلقني، صحيح أنني لم أتعرض لأذى أو للدغ، ولكن الأمر أصبح خطيراً، لقد وصل لغرفة نومي ودولاب ملابسي..

تسكت الجدة قليلا ثم تقول:

- قد يكون أحد عمل لكما عملاً.. فأولاد الحرام كثيرون..

تنظر «مرام» لهيثم وتضحك ثم تقول لجدتها:

- أهذا معقول يا جدتي؟

تصيح الجدة بلهجة واثقة:

- العمل موجود يا ابنتي كما أن الحسد موجود.. فالعين فلقت الحجر نصفين.. فما بالك بالعقرب.. وعلى أية حال نحن نأخذ حذرنا والاحتياط واجب..

صمتت الجدة قليلا ثم قالت:

- لدي الحل.

فرحت «مرام» وتهلل وجه «هيثم» وسألها :

- دلينا عليه يا جدة نرجوك.

أجابت:

- تحرقين كل ملابسك وكذلك المفروشات والأغطية.

أسقط في يد «هيثم» وشعر بصعوبة هذا الحل.. فصاحت مرام:

- هل هذا معقول يا جدتي. أنا عروس جديدة، وكل ملابسي لم أرتدها بعد وحاجياتي ما زالت بورقها لم أمسها، من أين تأتي لها هذه العناكب وكيف أحرق ملابسي ومفروشاتي.. فهذا فأل سيئ؟

دوى الخبر في محيط العائلة، وجاءت والدة «هيثم» على الفور، لتجد ما سمعته حقيقة بينة أمام عينيها، احتضنت ابنها وأخذته بجوارها وهي تهمس له:

- اسمع يا بني أنا خائفة عليك، أنت ولدي الوحيد الذي خرجت به من الدنيا، ولن أتركك تضيع مني في غمضة عين، فالعقرب يا عزيزي من أخبث الهوام، فأنثى العقرب عينها على بطنها، وولدها يخرج من

ظهرها، فإذا ولدت ماتت، وإذا لسعت هربت ولا تقف، وإذا خرجت من بيتها أول الليل كان لها نشاط وحركة، وتضرب أول شيء تجده في طريقها، وما يدريني لعلك تكون فريستها في أية لحظة، ولعل قدرك على يد من تحب.. فانفذ بجلدك يا بني.

ضحك «هيثم» وقال لأمه:

- اهدئي يا أماه، الموضوع بسيط للغاية، ولا داعي لأن نهول منه.

امتقع وجه الأم وهي تقول له:

- يجب علينا أيضا ألا نهون منه فهذا شيء لا يمكن السكوت عنه يا بني.

عقرب على فستانها يوم الزفاف، وأول يوم لكما في شقتكما، موضوع ليس بالهين يا حبيبي، وما زاد الطين بلة أنهم يريدون حرق متاعكما، الناس كلهم يرددون أن وجهها شؤم عليك، أنج بنفسك يا بني.

قال لها :

- ولماذا لا أكون أنا الشؤم عليها يا أماه.

أجابته وهي تلهث:

– كيف يمكن أن تقول هذا الكلام، ونحن لم نعرف شيئاً عن تلك العقارب، ولم نتعرض لهذا الموقف طيلة حياتنا، ولم تدخل بيوتنا هذه العقارب اللعينة. فالعقرب ظهر على ملابسها وليس على ملابسك..

أجابها:

مجرد صدفة، فقد كان من الممكن أن أكون أنا بدلا منها..

احتدم الأمر وتدخلت والدة مرام، بعد احتداد لهجة أمه، وانحازت جدة «مرام» لابنتها وحفيدتها واستشاط البيت غضبا، كل منهما يحاول أن يثبت براءته من هذا الموضوع..

حاول «هيثم» تهدئتهم جميعا:

ياجماعة هل نسيتم أننا نعمل بمعمل كلية العلوم قسم الحشرات، ووارد جدا أننا نتعامل مع مثل هذه الكائنات، ربما تسرب شيء منها دون أن ندري، سنأخذ حذرنا وسينتهي الأمر.

استطاع «هيثم» أن يقنع والدته، بأن تعود إلى بيتها، وأن تطمئن عليه، وأنه لا داعي لهذا القلق الذي يساورها، أما والدة «مرام» فلم تهدأ بالا، وكذلك جدتها، كانت في حالٍ يرثى لها بسبب ما يعتمل في نفسها من قلق وتوتر على حفيدتها الوحيدة.

حاول كل من «هيثم» و«مرام»، أن يظهرا في حالٍ طبيعية، حتى لا يلاحظ زملاؤهما في العمل، ولكن اعتلت وجهيهما بعض سحابات من القلق والخوف من المجهول، وشيء من الكدر لوَّن سعادتهما فأضحت عكرة غير صافية.

توافد الجميع للتهنئة، وأقام القسم حفلاً كبيراً لهما، لم يكن ليخفى على الجميع طبيعة كل من «هيثم» و«مرام»، فقد لوحظت التغيرات التي اعتلت وجهيهما، واقترب دكتور «محمود شكري» وقد اختلى قليلاً «بهيثم»:

- ماذا جرى يا «هيثم» ؟

حاول «هيثم» أن يخفي عليه مدعيا أنه لا شيء، وقال له:

- ربما يكون إرهاق من السفر لقد عدنا أمس فقط..

إلا أنه عاجله:

- لا تخفي عني شيئا، إذا كانت هناك مشكلة، فهي عارضة بالتأكيد، ولو تحب أن أتدخل فليس لدى مانع..

قاطعه «هيثم»:

- بالتأكيد يا دكتور إذا احتجت مساعدتك فلن ألجأ لغيرك.

لم يجد الدكتور «محمود شكري» بداً من الكلام.. فحياه وانصرف.

عاد كل من «هيثم» و«مرام» إلى المنزل، بعد يوم عمل شاق، ليجدا رائحة الدخان تنبعث من كل مكان في الشقة، جريا لغرفتهما التي يتصاعد منها الدخان، ظنا منهما أن ماساً كهربائياً، قد أجهز على الشقة بمحتوياتها إلا أن جدة «مرام» كانت قد أتت على كل شيء من ملابس «مرام» ومفروشات البيت، وكل ما يتعلق بها، ظناً منها أن هذا هو ما سيطرد العقارب إلى غير رجعة، علاوة على أنها أحاطت البيت بنباتات الحنظل وثمرات الأترج الذهبية.

شعر «هيثم» أنه محاصر وكأنه داخل زنزانة، أحس بالاختناق ولم يتمالك نفسه وأخذ يرغي ويزبد، ولكنه في النهاية جلس حزيناً كسيراً، يفكر فيم يحدث لهما منذ ليلة زفافهما ترى ماذا يُفهم من هذا، هل هي علامات الخطر، أم كما قالت والدته ربما يكون موته على يد من يحب. انتفض «هيثم» على يد تربت على ظهره كانت جدة «مرام».. جاءت الجدة لتهون عليه:

– يا بني لا تحزن على شيء سأعوضكما، عن كل ما تم حرقه الأهم سلامتكما. ومن الآن يمكنكما أن تقيما في منزلي، فهو قد بني حديثا ولا تحيط به غابات أو أشجار ولا يوجد أي أثر لتلك الجحور التي تدخلها اليرابيع والتي يمكن أن تجد فيها مثل هذه العناكب.

اعترض «هيثم» قائلاً:

– هذا لا يمكن تنفيذه يا جدتي، لأن ذلك سيكبدنا مشقة الذهاب للعمل، خصوصاً وأن منزلك بعيدٌ عن الجامعة.

أيدته «مرام» من بين دموعها، واختناق صوتها بالعبرات، ولكن دون جدوى كان عليه أحد خيارين، إما أن يذهبا مع الجدة، ويقيما هناك بعض الوقت، وإما أن يصرّ على موقفه ويحدث ما لا يحمد عقباه، خصوصاً أنها أول مشكلة تعصف بحياتهما، صحيح أنها جاءت مبكراً، ولكن ما باليد حيلة.. نظر «هيثم» إلى كومة الرماد المحترق، في ذلك الركن الأسود الكائن في غرفة نومهما، وقد تصاعد منه الدخان في كل مكان، والتهمت النيران كل شيء وراح يضرب كفا بكف:

- الأمر للّه ياجدة سنذهب معك.

-٨-

جهزت الجدة كل شيء في منزلها لاستقبال العروسين، وما إن دخل كل منهما ليستريح بعد عناء اليوم، حتى صرخ «هيثم» هذه المرة، فقد لمح عقربا يقترب من «مرام»، قام بمطاردته حتى قضى عليه، بات أمراً غير محتمل، لم يتمالك نفسه وانهارت «مرام» تبكي، وقد شعرت أن هناك شيئاً ما يطارد سعادتهما ويحرم عليهما الراحة في حياتهما الجديدة، حتى أنها قالت له وهي منهارة تماماً:

- ربما أحدهم قد دس لنا عملا؟

- لقد رأيت إحداهن تأخذ جوربا لي..

ضحك «هيثم» وقال لها:

- ماذا دهاك تتحدثين كما لوكانت جدتك هي التي تتحدث، ولا ينقصك سوى أن تحضري الجانّ وتقومي بعمل دقة زار!

قالت له:

- ربما يكون معها حق، لكني لا أجد أي تفسير لما يحدث لنا.. هذا أمر غريب.. بل في غاية الغرابة، فلكل شيء سبب علمي إلا هذا الموضوع الغامض، الذي جاء ليعصف بنا وبحياتنا.. أتستطيع أن تعطيني تفسيرا علميا معقولا يريحنا من هذا العذاب الذي بتنا فيه، أشعر أن أحدا يريد أن يفرق بيننا.

ضحك «هيثم» وقال لها:

- لو سمعك دكتور «محمود» لن يسمح لك بتسجيل رسالتك معه بهذا التفكير الخرافي.

قالت له:

- لقد تملكتني الحيرة وعجز الجميع عن التفسير.

أجابها:

- الهدوء هو المفتاح لحل المشكلة

فقدت أعصابها مرة أخرى وراحت تقول له:

- أتظن أن مثل هذا الأمر يحله الهدوء والصبر..

أخرجت من جوفها تنهيدة عميقة حملتها بكل ما بداخلها من ضيق وحيرة وقلق وعجز.

وبمجرد وصول والدة «هيثم» منزلها اتصلت لتطمئن على العروسين، وراعها ما سمعت فحزمت أمرها وانطلقت لبيت الجدة ولم تعد إلا بهما، وقد أمسكت بيد كل منهما حتى تتأكد وتثبت لنفسها أنهما معها بمعزل عن الخطر وفي أمان.

لم تستطع الجدة أن تعارض والدة «هيثم» هذه المرة، ورغم أنها متأكدة أن ما يجري شيء غريب حقاً، لم يحدث من قبل، إلا أنها صمتت لترى بنفسها ما ينتهي عليه هذا الموقف الذي لا تستطيع أن تجد له توصيفاً، والذي لم تصادفه في حياتها الطويلة، الأغرب من ذلك أنه بمجرد ذهاب «مرام» و «هيثم» من منزل الجدة اختفى كل أثر للعناكب في بيت الجدة.

حدثت الجدة ابنتها والدة مرام:

- هذه العقارب هي عوالم خفية تعيش تحت الأرض.. اللهم احفظنا..

أجابت والدة «مرام»:

- واللّه يا أمي لا أعرف ماذا أقول لك، شيء محير حقا.

راحت تفكر ثانية ثم عادت تعقب:

- عندك حق يا أمي وإلا كيف ستعرف هذه العناكب أن «مرام» وزوجها غادرا المكان فغادراه..

هزت الأم رأسها في حيرة وتساؤل ولم تجد ما ترد به على هذا السؤال.

راحت والدة «هيثم» تعد غرفته لينزل بها مع زوجته، وحمدت اللّه على وجودهما معها في البيت فهي واثقة أنهما سيكونان لديها في مأمن من كل شر.

انتصف الليل وشعر «هيثم» و«مرام» بالإعياء الشديد، نتيجة لما حدث منذ الصباح من أحداث، صعدا لغرفتهما، وألقى كل منهما بجسده المنهك، وراحا في نوم عميق، دون أن ينبسا بكلمة واحدة..

وبينما هو نائم في فراشه بجوار زوجته أحس بأرجل خشنة تمشي على قدمه عندما أطاح بالغطاء جانبا لمحه يجري بسرعة ناحية «مرام» ويختفي داخل ملابسها .. ظل يصرخ بشدة حتى استيقظ على صراخه.. واستيقظت «مرام» تسأله:

- ماذا هناك؟

يمسك رأسه وهو يقول بصعوبة:

- ياله من حلم مزعج..

نفخت بفمها وهي تقول:

- ماذا تتوقع أسوأ من هذا، فالعقارب ستطاردنا حتى في الأحلام. حاول أن تنام يا هيثم، فلنهرب من العقارب بالنوم..

- ليتها تدعنا ننعم بالنوم ولو لدقائق معدودة..

حاول جاهدا أن ينام ولكنه لم يستطع، كذلك «مرام» هجرها النوم إلى غير رجعة، بعد أن استيقظت فزعة على صراخ «هيثم» وظل كل منهما على هذه الحال حتى الصباح، تعثر الصباح كثيراً حتى أتى، وكأن الثواني والدقائق والساعات باتت شحيحة كسولة لم تعد تستطيع الجريان، فلقد نال الإرهاق منهما، وعليهما أن ينطلقا إلى معمل الكلية، عندما وصلا إلى هناك بحث «هيثم» عن دكتور «محمود شكري» في كل مكان، ولكنه علم أن لديه محاضرة ولم يملك إلا الانتظار حتى ينتهي من محاضرته، أما هو فقد ذهب لطلبته رغم أن أرجله لا تقوى على حمله من إرهاق الليلة الماضية.

-٩-

اندمج «هيثم» مع الطلبة والطالبات في المحاضرة، وكاد ينسى ما ألمّ به لولا أنه سمع صراخاً يأتي من المعمل، ووجد الطلبة في هرج ومرج، وراحوا يرددون أنهم وجدوا عقرباً في المعمل بالقرب من «مرام».

تجمع الأساتذة والطلبة، ودخل العمال المعمل يحاولون القضاء على العقرب، رافعاً ذيله إلى أعلى، وكأنه متحفز للانقضاض بشكله المخيف، بكماشتيه الأماميتين، وكأنه يعلن الحرب عليها أينما ذهبت.

فوجئ الجميع بدكتور«محمود شكري» يطلب منهم ألا يقتلوا العقرب، بل يحتفظوا به في قنينة زجاجية من زجاجات المعمل، وعليهم أن يحكموا إغلاقها جيدا.

فهمَ «هيثم» ما يرمي إليه أستاذه، وقابله وجهاً لوجه، وقد خفض «هيثم» رأسه في أسى، ولكنه ربت على كتفه وهمس قائلا:

– كل مشكلة ولها حل يا هيثم فلا تنزعج سوف نحل هذا اللغز في أقرب وقت ممكن.

نظر «هيثم» له في اندهاش.

– هل عرفت؟

رد عليه الدكتور «محمود»:

– لقد أخبرتني والدة «مرام» بكل شيء.

فكر الدكتور «محمود شكري» كثيراً، ولكنه لم يصل إلى حل بل لم يستطع أن يجد هو الآخر تفسيرا علمياً، وراح يتساءل مع «هيثم» قائلاً:

سأتحدث معك بصوت مسموع، ربما تمكنا من الوصول لتفسير هذه الظاهرة الغريبة خصوصاً وأن «مرام» منذ التحقت بالكلية لم يحدث هذا معها أو مع غيرها.

أجابه «هيثم»:

لقد كنت معها طوال سنوات الدراسة، ولم تحدث هذه الظاهرة سوى ليلة زفافنا..

هز الدكتور «شكري» رأسه في عدم تصديق لما يحدث وقال له:

- سأبحث الأمر مع دكتور «شاهين رسلان» أحد المتخصصين في العناكب.

أومأ «هيثم» برأسه بالإيجاب في يأس وقنوط، وشكر أستاذه على اهتمامه بحل مشكلتهما وانصرف.

خرج «هيثم» و«مرام» من الكلية لا يلويان على شيء، وفي طريق عودتهما، لاحظت أن هيثم لم يتفوه بكلمة واحدة منذ غادرا الكلية، فبادرته قائلة:

- أشعر أنك قد استسلمت للعقارب، وسلمت لها مقاليد حياتنا لتعبث بها.

نظر إليها وقد فوجيء بكلماتها وروحها العالية رغم الظروف التي تمر بها:

- لا أبداً.. كل ما في الأمر أني مهموم، لأننا منذ أن تزوجنا، كتب علينا الشتات وترك منزلنا الذي حلمنا به سنوات..

أجابته:

– أجد الوضع معكوساً، كان من المفترض أن تسري أنت عني.. أهكذا مع أول مشكلة تواجهنا نحني رؤوسنا.

أجابها:

– عزيزتي الأمر يخص سلامتك بالدرجة الأولى وهذا ما يقلقني ويحزنني في نفس الوقت..

أجابته:

– بل الأمر يخصنا معا. لهذا أرى أنه علينا منذ الآن، مواجهة الموقف بشجاعة، وعدم الخوف منه، لقد تعودت طيلة حياتي أن أواجه أي أزمة تعترضني بالعقل والحكمة.

أجابها:

– ولكني أخشى على حياتك.

نظرت إليه وقد لمعت عيناها ببريق الحب، الذي تاه في زحمة العقارب وقالت له:

– ما رأيك في نوبة من نوبات الجنون، نعود إلى منزلنا في الحال، ودون جدال أو مناقشة..

يبدو أن الفكرة راقته:

فأعلن الموافقة على الفور..

-١٠-

لم ينتبه أي من «هيثم» أو «مرام» أن يبلغا أحداً بعزمهما العودة إلى منزلهما، فقد اشتاقا إليه كما اشتاق إليهما، وزيادة في الحرص على أن يكونا وحدهما أغلقا هواتفهما..

شعر الجميع بالقلق عليهما، واتصلوا بهما في كل مكان، وعند كل من يعرفونهم، ولا توجد سوى إجابة واحدة.. لم نرهم منذ الصباح في الكلية.

استيقظ «هيثم» و«مرام» على دقات متوالية على باب الشقة ليجدوا طابوراً ببابهم الجميع في قلق ورعب، مما قد يكون ألمّ بهم.

اغتاظوا عندما فتح هيثم الباب بكل بساطة، وهو يتثاءب ويفرك عينيه وينفض عنهما النعاس ويقول لهم:

- آسف يا جماعة، لقد أخذنا النوم من فرط تعبنا وقلقنا، ولم نستيقظ إلا على طرقاتكم..

استطاع «هيثم» أن يغير حال كل من وقف ببابه اليوم من قلق وتوتر، لحالة قصوى من السعادة والمرح، وحاول أن يقنع الجميع أن الأمر لا يعدو عن كونه مصادفة، وانتهى الأمر وأنهم لن يتركوا منزلهم لأي سبب كان، وسيبحثون السبب مع متخصص في علم العناكب

نظرت إليه «مرام» بسعادة بالغة، عندما وجدته يتحدث بلهجة تمتلئ حماسا وحبا اختلفت عن رنة الحزن والتعاسة التي كان يتحدث بها في الصباح، كان يتحدث إليهم ولكن قلبه وعقله وكل كيانه معها، نظراته تتابعها، تتعانق مع نظراتها وكأن لسان حاله يؤكد لها، أنه لن يتخلى عنها ولن يضعف لأي سبب كان، ورغم ذلك لم تكن «مرام» واثقة من الكلام الذي أقنع به «هيثم» الجميع، فهو شخصياً لم يقتنع، فمن يضمن له ألا يكتشف عقرباً يختبئ له في أي مكان وفي أي وقت..

لم يكف رنين الهاتف طوال الليل من الأمهات والجدة، وأصبح كابوساً يطاردهم في كل وقت وكل مكان.

رن جرس الهاتف.. كان هذه المرة الدكتور «محمود شكري»:

- معذرة يا «هيثم» الوقت متأخر، ولكني أردت الاطمئنان عليكما.

- الحمد لله يا دكتور نحن بخير..

قال له:

- عندي لكما أخبارٌ هامة أريد أن أراكما غداً في المعمل.

- إن شاء الله يا دكتور سنكون عندك باكراً.

❖❖❖

أسرع «هيثم» و «مرام» بمقابلة دكتور «محمود شكري» ليعرف كل منهما ما هي الأخبار الجديدة التي سيطلعهما عليها. لم يكن بمفرده ولكن كان معه دكتور «شاهين رسلان» أستاذ علم الحشرات والمتخصص في العناكب وقال لهما:

لقد فحصنا العقرب الذي احتفظنا به في المعمل أمس، ووجدناه من العقارب الصفراء من فصيلة «بوثيدي» وهي من أكثر الفصائل سمية، إلا أنه من تدابير القدر أن سميتها نادراً ما تكون قاتلة للإنسان، ومع ذلك فيمكن أن تقتل الطفل أو الشيخ الكبير لضعف مناعة الجسم عندهم.

أجاب «هيثم»:

- ولكن كيف سيتم البحث على العقارب ويتعرض الجميع للخطر وبخاصة «مرام».

- أصبت يا «هيثم»..

قالها وهو يضع يده على كتفه، مما أكسب الحديث نوعا من الألفة والود، بين صديقين حميمين وليس بين طالب وأستاذه:

- لقد توصلت مع دكتور «شاهين رسلان»، على كسر الشوكة التي تحتوي على السم وبهذا لن تمثل العقارب أية خطورة على كل منكما،

وأظنكما تدربتما جيداً أنت و«مرام» على التخلص من شوكة العقرب مع دكتور «شاهين رسلان» في السنوات الأولى من الدراسة.

أومأت «مرام» برأسها بالإيجاب بينما عاد دكتور «محمود شكري» ليكمل حديثه وهو يقول:

- ليس هذا كل ما في الأمر، ولكن منذ اليوم ستكون العقارب موضوع دراستكما، ليستفيد كل منكما بهذا الوضع، كل منكما يختار طريقة تختلف عن الآخر في البحث والدراسة فأنتما وجهان لعملة واحدة، هو موضوع العقارب.. لأن الموضوع في حد ذاته غريب ومثير كما يجب أن نصل فيه لنتائج جديدة، تبهر العالم من حولنا، فلا توجد أي دراسة علمية تحمل من الغرابة والطرافة وندرة الحدوث ما تحمله دراستكما.

- ولهذا أريدكما أن تستغلا هذه الظروف لصالحكما ولا تتوقفا كثيراً عند مشكلة العقارب إلا في حدود البحث العلمي.. حتى تنجزا رسالتكما علاوة على هذا وذاك سيقلل ذلك من الضغط العصبي والنفسي الذي تعيشانه خلال هذه الأيام، وسيكون الأمر عادياً عندما يعرف جميع الأهل والأصدقاء أن هذا هو موضوع رسالتكما. فسيكون وجود العقارب طبيعياً لأنها مجال الدراسة وعينة البحث لديكما..

❖❖❖

تحمّست «مرام» لموضوع الدراسة، وأصبحت أكثر هدوءاً عن ذي قبل، بل أصبحت أكثر حرصاً وبحثاً عن العقارب المختبئة هنا وهناك، والغريب في الأمر أنها لم تعد تصرخ لرؤية العقرب، أو تنتابها حالة الفزع لمجرد رؤيته، بل حدث نوع من الألفة والاعتياد، وصارت تتوقع رؤيته في كل مكان تتواجد فيه، وبالتالي، برمجت نفسها تلقائياً أنها بمجرد رؤيته تقوم بعدد من الطقوس فقد أعدت في كل غرفة أكثر من قنينة زجاجية حتى تحتفظ بالعقارب فيها فور العثور عليها.. مرت فترة طويلة دون أن تشكو «مرام» من هجوم العقارب لها، حتى كاد «هيثم» أن ينسى هذا الموضوع تماما، وينسى معه موضوع الرسالة التي يعدها كل منهما.

دخل «هيثم» ذات يوم المنزل ولم يجد «مرام» بحث عنها في كل مكان في المنزل دون جدوى أخيرا وجدها تخرج من إحدى غرف المنزل، كانت «مرام» قد جهزتها من قبل لتكون معملا يمكن أن يجريا فيه معا أبحاثهما المعملية.

قابلته «مرام» بابتسامة هادئة جميلة وقالت له:

- لدي مفاجأة عظيمة.

أجابها:

- هل انتهيت من تجهيزات المعمل؟

ردت عليه:

– لا .. الموضوع أكبر من ذلك بكثير تعال معي لترى بنفسك.

أغمضت «مرام» عيني «هيثم» وأدخلته حجرة المعمل وقالت له:

– هيا افتح عينيك.

فوجئ «هيثم» بقنينات كثيرة بها أكثر من ثلاثين عقرباً، من فصيلة العقرب الأصفر التي سبق وأن حدثه عن أوصافها الدكتور «محمود شكري» وبهت لهول المفاجأة وسألها:

–من أين أتيت بكل هذا العدد الضخم من العقارب يا «مرام»؟

أجابته وهي تحاول أن تراوغه:

– خمن..

أصبح أكثر عصبية وراح يعيد عليها السؤال وهو يقول لها:

– إذن أخفيت عني طوال الأسبوعين الماضيين كل هذه الأعداد بأكملها التي هاجمتك؟

هزت رأسها وهي تقول:

– في الحقيقة يا «هيثم» لم أرغب أن أشعرك بالقلق، وحاولت أن أجمع أكبر عدد ممكن لنبدأ على الفور العمل المعملي الذي طلبه منا دكتور «محمود شكري» خصوصاً أنني اعتدت الوضع، ولم يعد يمثل لي ذلك الأمر الرعب الذي أحسسته أول مرة في ليلة زفافنا عندما

هاجمني العقرب.. ولقد حاولت الاستفادة بالفعل من كلامٍ دكتور «محمود شكري» بأن أحول المشكلة إلى موضوع للدراسة وبدلاً من أن تصبح مشكلة شخصية تتحول لمشكلة بحثية.

نظر إليها نظرة ذات مغزى وقال لها:

- لديك القدرة لأن تستفيدي من كل شيء لصالحك يا حبيبتي.

استفزتها الجملة ووجدت نفسها لا تستطيع أن تبتلع كلامه فراحت تقول له:

- تقصد مصلحتنا معا يا حبيبي..

رد بدبلوماسية:

- أجل.. معك حق..

نظرت «مرام» إليه وقالت له:

- هاه.. هل استعديت للعمل الشاق..

انتبه «هيثم» وسألها:

- وما هو هذا العمل؟

ضحكت وهي تقول له:

- هل حقاً نسيت!.. فصل الشوكة التي تحتوي على السم عن العقرب!. هل نسيت الرسالة. نسيت مستقبلك العلمي؟

خبط جبهته بكفه وقال:

- آه.. يا لي من متكاسل.. كدت أنسى كل شيء.

أجابته «مرام»:

- عموماً أنا قطعت شوطاً كبيراً في العمل، وعليك أن تعمل الفترة القادمة بحماس وإلا فلن تلحق بي وعلينا أن ننتبه لعملنا ومستقبلنا العلمي قليلاً.

أجاب في طاعة مصطنعة:

- سمعاً وطاعة يا محبوبتي.. ولكن لا تنسي أننا ما زلنا في شهر العسل.

بالرغم من تعوُّد «مرام» أن تجد عقرباً بجوارها على الوسادة، أو زاحفاً تحت الغطاء، أو أسفل السرير، أو متعلقاً بأذيال مفرش مائدة الطعام، أو حتى عندما تضع زينتها، فلقد أصبحت تتوقع العقارب بقربها حتى في الأحلام، تخشى أن يغتالها عقرب ما في ساعة تختلي فيها بنفسها أو في تلك اللحظات التي يغيب فيها الإنسان عن وعيه ويفقد الإحساس بالزمان والمكان وكل الحدود تلك اللحظات الحميمية في حياة كل منا التي يشعر فيها أنه محمول بقوة خفية عن الأرض لا يمسها بأطرافه، يشعر أنه منفصل عن ذاته منشق عن كيانه.

أكسبتها العقارب حيطةً وحذراً لم تكن تتسم بهما ولم يعد يكلفها الأمر سوى فتح قنينة زجاجية جديدة تضع العقرب بداخلها وتحكم إغلاق فوهتها سريعاً، لتستعد بعد ذلك لمرحلة فصل السم والشوكة عن العقرب، إلا أن «هيثم» مازال يشعر ببعض التوجس والخيفة ولم يتخلَّ عن حذره..

بدأت «مرام» تدخل المعمل لساعات طويلة، وتختفي مع عقاربها التي تتزايد يوماً بعد يوم في معملها الصغير حتى اقتربوا من المائة عقرب. عبء ثقيل أن يقوما هما الاثنان فقط بهذا العمل، ولكن بدأ كل منهما يستعين بطلبته في المحاضرات المعملية، لفصل أكبر عدد ممكن من شوكة العقارب وسمها، كل منهما يدوّن ملاحظاته بمعزل عن الآخر، حسب توصيات كل من دكتور «محمود شكري» والدكتور «شاهين رسلان».

لم تكن هذه الليلة ككل الليالي السابقة، التي مرت عليهما ولكنهما اقتربا من فصل آخر عقرب في العينة واستبعاد شوكته التي يحمل بداخلها السم الزعاف.

كان الغد موعدهما مع الدكتور «محمود شكري» والدكتور «شاهين رسلان» لإخباره عن آخر التطورات في البحث.

انتصف الليل، الإعياء والإجهاد يبدوان على وجه «مرام» و «هيثم» بجلاء، ولكنهما قد انكبا على العمل بحماس.. نظرت «مرام» لزوجها من خلف نظارتها الطبية وهي تقول:

– أتعرف يا «هيثم» أن اختيار الدكتور «محمود شكري» هذا الموضوع للدراسة كان اختياراً عبقرياً .

أجابها :

– بالفعل.. لقد أصبحت العينة متاحة لنا .

لكنها عاجلته:

– لا .. لم أقصد هذا فقط، وإنما امتص القلق والتوتر الذي سيطر علينا خلال الأسابيع الأولى من زواجنا ، وحوَّله لطاقة عمل خلاقة، ومجالاً للتنافس بيننا ، ولكن هل يمكن أن يأتي يوم تغار فيه من نجاحي

قاطعها على الفور:

– يجب أن تعلمي أن نجاحك هو إضافة لنجاحي.. لكنني أخشى على نفسي من اهتمامك بالعقارب.. وأخشى أكثر أن تأخذك العقارب مني..

ضحكت «مرام» وقالت له:

– أتظن أنني أفضِّل العقارب عليك يا حبيبي.. لا .. لا .. لا أنوي أن أتخلى عنك هذه الأيام.. وعموماً لن أدعك تفلت مني يا عقربي الأثير..

ضحك وهو يقول:

- ولكن لا تكسري شوكتي يا مليكتي وخصوصاً أنك أصبحت ماهرة في عملية فصل الشوكة عن العقرب والتخلص من سمومه، بل أنك ستصبحين أغنى الأغنياء من بيعك سموم العقارب لشركات الأدوية وفي وقت قصير ستصبحين مليونيرة..

قالت له:

- تتحدث وكأني أعمل وحدي ألا تشترك معي في كل شيء عموماً سنكون شركاء في صناعة المليون الأول.

انهمك كل من «هيثم» و «مرام» في عملهما بالمعمل ليطالعهما عالم غريب من الأسرار عالم محاط بخفايا إلا إذا نظرت بعيون جديدة لها إمكانيات فريدة..

-١٣-

يدان مبسوطتان، أصابع مفتوحة عن آخرها، مستعدة للانقضاض على أي هدف يتحرك بالقرب منها. تمشي في خطوط ملتوية، صاعدة وهابطة للأمام وللخلف تعود على أعقابها، رائحتها مميزة ربما لا يخطئها أحد.

هز جسده إلى الأمام، ثم إلى الخلف، هزه عدة مرات، حركاته قصيرة وسريعة ومتعاقبة، لم يتوقف عن مناوراته التي بدأها منذ أن أحس بوجودها، بهره أنها صارت أنثي مكتملة تعبر عنها مفاتنها، وما إن يلمحها حتى يخرج وراءها.

أنصتت إليه، راحت ترقب حركاته عن بعد دون أن تظهر له ذلك، هو من ذلك النوع الذي لا يخجل أن يعبر عن مشاعره تجاهها، وبالرغم من اقترابه منها إلا أنها لمحت أنه يبدو خائفا في بعض الأحيان، يخشى مواجهتها، ولا يجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك، ربما هذه هي تجربته الأولى فلم يكن له سوابق قبلها.

راح يتمنى في قرارة نفسه أن تصمت تماماً عن الحركة، ليتأكد من شعورها.. آه.. لو عرف مشاعرها تجاهه.. آه لو تصمت برهة عن الحركة، ساعتها ستتحقق كل أحلامه.. راح يحدث نفسه، لكن ماذا لو تحركت؟

ساعتها سيفر هارباً من أمامها، ولن يراها ثانية إلى الأبد، وسيحكم على حياته بالفناء.

شعر أن الساعة توقفت عن دورانها، وأن الثواني دهر بأكمله يأبى السير، لا يعرف كم مر عليه من الزمن وهو ينتظر لحظة صمت واحدة، تكف فيها عن الحركة فالسكوت علامة الرضا..

تحولت لقطعة من الرخام، لا تصدر عنها أي حركة، كأنها تقول له هيا تقدم أيها الفارس المغوار، ماذا تنتظر مني بعد ذلك، هل تنتظر أن أكون أنا البادئة بالاعتراف، لم يتمالك نفسه من الفرحة عندما استجاب القدر لأمنيته..

تقدم بضعة خطوات حتى وجد نفسه قبالتها، ما زالت كقطعة من الرخام الأملس وكأن حياءها يمنعها من أن تصدر حركة واحدة.

تحدث إليها عن نفسه كثيراً، وعندما شعر أنها أنِست إليه مد يده برقة بالغة، حاول أن يلمس يدها ولكنها ظلت جامدة مكانها، عاود الكرة راح يلمس يديها، بل انحنى برقة ليقبل قدميها.

ظلت على جمودها، بكل حذر رفع يدها لثَمها بشفتيه، وأنزلها بكل حرص خوفاً من غضبها.

راح يجلس بجوارها في لحظة صمت لم يَجُدِ الزمان بمثلها، شعر أنه وجد ضالته، قبع بجوارها ربما ليؤكد لنفسه أنها تخصه وحده.

أمسك يديها برقة جذبها إليه بلطف وراحا يدوران في فلك واحد.. يرقصان معاً.. رقصة الحياة. التي تعزفها كل الكائنات.

سارا معاً جنباً إلى جنب، جذبها وراءه ظلا يجوبان كل الأماكن من حولهما بسعادة فوق الصخور وتحت التراب وكأنهما يستطلعان عالماً جديداً.

فجأة.. توقفت عن السير فيما يبدو أنها تعبت حاول إقناعها ببساطة نجح في إقناعها واصلت السير قليلاً ثم توقفت، فجأة انغرست في مكانها، ورفضت بإصرار أن تتقدم خطوة واحدة، على ما يبدو أنه فهم أنها تومئ له بضرورة الانتقال إلى مرحلة جديدة.. فأمسك بكلتا يديها وأصبح قبالتها وجها لوجه وراحا يلفان ويدوران، قرصها بخفة وكأنه يغازلها، راحا يكملان رقصتهما معا.. رقصة العقارب.

رفعت «مرام» عينيها، ودقق هيثم النظر، اقترب منها مليا، لم يستطع لأول وهلة أن يتبين تفاصيلها الدقيقة، لفت نظره أنها تتحرك بحرية وسهولة، بل اكتسبت رشاقة ومرونة، برغم سجادة الأحجار التي فرشت أسفلها.

حصيات كروية متعددة الألوان والأشكال، وأخرى عصوية تفننت الطبيعة في إكسابها لونا فريدا أكسبتها ملامحها الانسيابية الناعمة وكأنها ابنة لها، وقد بذرت بعناية فائقة لمس هذه الأحجار، حاول أن يكبر العدسة، استبدلها بأخرى لها قدرة على تكبير الوجوه وتقريب المسافات، أخيرا تبين رأس وصدر كونتا قطعة واحدة، وكأنها تسير على بساط سحري ناعم لم تعرقل خطوتها ولكن كعادة معظم الأبناء يحبون أن يكون لهم كيان مختلف عن طبيعتهم التي نشؤوا عليها وأن يشذوا عن آبائهم حتى لو كان الطريق الذي يعرجون إليه سيشذ عن الخط المستقيم، إنه هوس الاختلاف وطبيعة وناموس الحياة..

تخيلها أشبه بفتاة تجلس على الشاطئ وقد أسندت كماشتيها إلى رأسها، رفعت ذيلها إلى أعلى بدت كدبابة مصفحة راحت تزحف عليها بدروعها الحديدية المحصنة وخطوتها الجانبية متثاقلة الخُطا بعقلاتها الخمس التي تشبه الحلة الواقية من الرصاص، والتي تعلن في نهايتها عن مدفعها الذي تحارب به وتشهره في وجه من يقاومها، وهذه هي إبرتها التي تفرغ فيها سمها عن طريق تجويفين أنبوبين يحملان هذا الكيس المدجج بالسم لتطلقه وقت الحاجة.

تتبعت عدسة «مرام» العقرب الآخر، وجدتها تخرج من جحر كجحور اليرابيع، تختبئ فيه نهارها لتهرب من النور فهى تعشق الظلام، فالعقارب لا تسعد إلا في جوف الظلام، لا تحب نور الشمس تنزوي عن العيون بين الصخور والشجيرات، أوخلف النباتات الجافة وتحت الأنقاض فهى ربما تشعر بالحب ولكن حب العقارب في الظلام ينتهي بالتهام الحبيب وعندما تعود الشمس إلى بيتها، و يهبط الظلام من جديد تخرج من مكمنها الأثير بحثا عن الغذاء.

-١٤-

أمسكت «مرام» بجهاز صغير وجَّهته نحو العقرب، وعندما ضغطت على أحد الأزرار أصدر نوعاً خاصاً من الأشعة فوق البنفسجية، نتيجة لوجود مركبات الفلورسنت على الطبقة المغطاة لأجسامها، كانت تبتعد حوالي خمسة أمتار عن العقرب، الذي راح يلمع في الظلام فهالها كم الأشعة الصفراء التي خرجت منه ولاحظت أن الأطراف والكماشتين كل ذلك يميل إلى الون الأصفر الفاتح، كانت الكهرباء الخارجة من الكشاف بقوة ٢٤٠ فولت وبتيار شدته ٨ وات وبتردد ٣٠٠ مايكرو متر، وهذه كانت كافية لرؤية العقرب في الظلام الذي سرعان ما شعر بالضوء المسلط عليه فحاول الإفلات. راحت تسأل نفسها .. ترى ماذا يجب علي أن أفعل ؟ هل علي أن أستعد لشيء ما، وما الخطر الذي يحدق بي ويقترب مني الآن ولا أعرفه؟

سرعان ما نسيت «مرام» ذلك الخطر الذي يتهدد حياتها فقد هالها حجم الجحر الذي قامت العقارب الصفراء بعمله فهو عميق

على غير عادة العقارب السوداء فغالبا ما تتميز جحورها بأنها سطحية وغير عميقة..

سيطرت أفكار كثيرة على رأس «مرام»، وهي تفكر في مسألة أعيتها ولكنها عجزت أن تجد الجواب، فما كان منها إلا أن باغتت «هيثم» وهو منهمك في المعمل يلاحظ ويدون مشاهداته، وقد بدا على وجهه الارتياح للنتائج التي وصل إليها ولكن بمجرد أن سألته:

- «هيثم» ألم تلاحظ معي غرابة هذه المسألة..!

أجابها:

- أية مسألة؟

- لماذا تتجه العقارب نحوي بالذات.؟.

فوجئ «هيثم» بسؤالها وتبدّلت ملامح وجهه من الارتياح إلى القلق والتوتر، ولكنه هز رأسه مؤكدا عدم معرفته بالإجابة.. أكدت له أن ثمة شيئا خاصا بها يجذب العقارب إليها ولابد أن تتوصل إليه.

فكر «هيثم» في حديثها، وراح يقلبه على كل الوجوه، لكنه لم يصل لأي تفسير علمي ممكن سواء على المستوى النظري أو العملي. ويبدو أن «مرام» بيتت النية على أمر ما، لأنها جهزت حقنة وطلبت من «هيثم» أن يسحب عينة من دمها وانكبت تعمل بجد، تنتقل بين عقاربها تلاحظها تلقي من حين لآخر نظرة على التحليل حتى تتابع

نتائجه وهي في حالة تشوق لمعرفة النتيجة، لم يفهم «هيثم» ما السر في أخذ هذه العينة، وعندما حاول أن يستدرجها لمعرفة الأمر كانت متحفظة لدرجة كبيرة وقالت له:

- سأخبرك عندما تتأكد ظنوني من أمر ما..

استبدّ التعب والإرهاق «بهيثم» و«مرام» ولم يستطع هو أن يكمل أو حتى يرى نتيجة التحاليل التي لا يعرف كنهها، أما هي فقد قاومت حتى تباشير الصباح الأولى..

نظرة غريبة ارتسمت على وجه «مرام» لا تعرف كنهها هل هي لذة الفوز في جولة من جولات بحثها أو حالة غريبة لم تمر على أي من البشر، أم شعور بالتعاسة لا تعرف ماذا يخبئ لها القدر في عباءته الفضفاضة التي لفتها دون علم منها أو إشارة؟

غريبة «مرام» عن بني البشر، لم تر أحدا ممن حولها يحدث له ما حدث معها، ظلت واقفة جامدة ممسكة بنتيجة التحاليل، التي ظهرت لها، نظرت في الساعة فوجدتها تشير إلى الخامسة والنصف صباحا تساءلت فيما بينها وبين نفسها هل يجوز أن تتحدث إلى الدكتور «محمود شكري» في هذا الوقت المبكر، أم تنتظره في الجامعة، لكنها لا تستطيع أن تنتظر..

ضغطت «مرام» على أرقام الهاتف، وكأنها تضغط على آلامها الدفينة بداخلها ربما تسكنها مكانها، وكأنها مع كل ضغطة من ضغطاتها على رقم من الأرقام تضمد جرحا ينزف حاولت إسكاته

ولكنها كانت تشعر بشيء ما يجثم على قلبها، ارتدت ذاتها السواد الحالك، تحتاج لبصيص من نور، حتى تتمكن من عودتها لتوازنها، ربما استطاع الدكتور «محمود شكري» أن يضع حلا لأوجاعها ويسكن آلامها، جاءها صوته وقد شابه آثار النوم وقد تعلقت بأهدابه وبحة صوته وكأنه يتأكد من صوتها:

- «مرام» خيرا.. ماذا حدث؟

- معذرة لأنني أحدثك في هذه الساعة يا دكتور ولكن حدث شيء لم يخطر على بال.

أجابها:

- هل أنت بخير ؟

صمتت «مرام» فقال لها:

- «مرام» أخبريني ماذا حدث؟.

حاولت «مرام» الحديث ولكن خنقتها العبرات وأخيراً قالت:

- وصلت لنتيجة خطيرة يا دكتور «محمود»

أجابها:

- خيراً.

- خطرت لي خاطرة وتأكدت منها بالتجربة العملية، فقد أخذت عينة معملية لي وسحبتها وحللتها ووجدت..

تستجمع قواها وتقول له :

- شيء لم تتخيله يا دكتور «محمود» وجدت في دمي فورمونات.. جاذبة للعقارب الذكور بالذات وهي تشبه إلى حد كبير تلك التي يشتمها ذكور العقارب فينجذبوا إلى إناثهم..

- اكتشاف مثير بالفعل.. لا ينبغي أن نتحدث فيه عبر الهاتف سأنتظرك في المعمل لنتحدث..

يغلق الدكتور «محمود شكري» الهاتف بينما كانت «مرام» تتساءل فيما بينها وبين نفسها.. ترى ما الذي جذب «هيثم» لي؟

- تنفجر باكية.. لا تستطيع أن تحبس دموعها، تلألأت قطرات الندي على خديها لعلها تريحها أو تستريح من العناء الذي يجثم على صدرها، وكأنها تحمل هموم العالم فوق كتفيها، تتمنى لو أزاحت عن كاهلها جبال الحزن والهم والقلق التي تطبق على أنفاسها .

-١٥-

قمة ثلاثية، ولقاء ثري مثير وخطير، جمع بين «مرام» والدكتور «محمود شكري» والدكتور «شاهين رسلان»، علت الدهشة وجوههم وبدأ دكتور «محمود شكري» حديثه قائلا :

- بالرغم من نتيجة التحليل التي أجريتها على دمك إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة هناك خطوة يجب أن نقوم بعملها للتأكد من هذه النتيجة.. ويجب أن تعاد التحاليل أكثر من مرة حتى نثق بالنتائج..

علّقت «مرام»:

- وما الذي يمكنني فعله الآن؟

أجابها:

- عليك بأخذ عينة من دمك ووضعها في صندوق زجاجي به فتحتان إحداهما فيها عينة الدم وفي الفتحة الثانية عقاربك المعملية..

حاولت «مرام» التعقيب ولكن صادر دكتور «رسلان» على كلامها:

- لا تسبقين الأحداث دعي النتائج هي التي تؤكد لنا..

عندما وصلت «مرام» إلى المنزل كانت في حالة من الإعياء البدني والنفسي يرثى لها حتى أنها عانقت النوم في شوق ولهفة شديدين، ولم تستيقظ إلا في المساء على هزات عنيفة متواصلة من يد «هيثم» وهو يوقظها فزعاً مرتعباً:

- «مرام» انهضي من مكانك سريعاً.

فتحت عينيها وهي لا تعي من الأمر شيئاً، إلا أنها وجدت عقرباً من العقارب الصفراء بجوارها على السرير، يقترب من وسادتها.. بالرغم من هذا الموقف المرعب إلا أنها بثبات غريب مدت يدها بأتوماتيكية

شديدة لقنينة زجاجية كانت قد نثرتها هنا وهناك في حجرات المنزل لمثل هذه المواقف، وراحت تضعها داخلها كمن يحتفظ بقطعة ذهبية ثمينة يدخرها ليوم عصيب، ولم تنس إعطاءها مخدراً لتتمكن من فصل الشوكة واستخلاص السم دون خطورة.

سادت فترة من الصمت كل منهما منهمك في عمله، قطعت «مرام» الصمت وهي تسأل «هيثم»

- ألم تشعر بالخوف بعد؟

أجابها:

-من ماذا؟

قالت له:

- مني أنا .. لقد أصبحت أشكل خطراً حقيقياً على حياتك.. لقد سمعت والدتك تكررها، وأنت تحاول أن تبدو متماسكاً، لقد طالبتك والدتك بالابتعاد عني أكثر من مرة وعلى مرأى ومسمع مني ومن غيري.. لقد بتَّ تخاف الاقتراب مني خشية أن تقتلك العقارب، التي تترصدني أينما ذهبت. أليس كذلك؟ هل أقول لك منذ كم يوم لم تمس شفتاك شفتي، أو تلمس يداك يدي.. ولم يضمنا فراش واحد ونحن ما زلنا بشهر العسل.. فلماذا تربط حياتك بزوجة تتبعها العقارب أينما حلت؟.

رفع «هيثم» نظره إليها وقال لها:

– عزيزتي «مرام» كل منا يخاف شيئاً ما وهذا ليس بجديد.. أنا أخشى عليك أكثر من خوفي على ذاتي.

أجابته:

– لا تحاول أن تبدو مثالياً.. كن واقعياً.. «هيثم» لقد سيطرت العقارب على حياتنا، فصلتنا، وقطعت أواصر الحب والمودة بيننا سيطر علينا الخوف، واستجبنا لها، تركنا لها البيت والأرض ترتع فيها حتى نفوسنا خربتها وجعلتنا نعيش في عزلة، وكأن كلاً منا يعيش في جزيرة منعزلة عن الآخر، أراك كل يوم وأنت لا تستطيع أن تغمض عينيك لحظة واحدة طوال الليل وتنتظر حتى أغمض عينيٍ وأذهب في النوم لتخرج من الغرفة وتستطيع النوم في أي مكان بعيداً عني حتى تأمن غدر العقارب وتتبٌعهم لك..

ابتسم وقال لها:

– حبيبتي الحب لا يعرف الخوف فهو مغامر ويجب على من يركب موجته أن يكون قادراً على الإبحار وركوب التيار ونحن في قارب واحد.

– هذا هو ما يخيفني يا «هيثم».. أن يغرق القارب بمن فيه. ترى إلى متى ستتحمل هذا الخوف والقلق وكم ستصبر أجفانك على مجافاة النوم؟.

نظرت «مرام» إلى «هيثم» وقد تلألأت الدموع في عينيها وقالت له:

عدني إن شعرت يوماً بالخوف مني أو تبدل إحساسك نحوي أو شعرت أنك لا تستطيع أن تكمل المشوار الذي بدأناه معا عن رغبة حقيقية، فلا بد وأن نفترق في هدوء ودون جرح، لا داعي لأن تنزف جراحنا ونحن نملك أن نوقف نزيفها..

ترك «هيثم» قنيناته الزجاجية واقترب من «مرام» وهو يقول لها:

أنا أعد لشيء جديد سيحمينا من هذا الخوف، سأصرح به عندما أصل فيه إلى نتائج مؤكدة.. وربت على يدها وعاد من جديد لقنيناته الزجاجية..

-١٦-

دخلت «مرام» فوجدت «هيثم» منهمكا في زراعة بعض النباتات قد ملأ بها حديقة المنزل راحت تفترش الأرض كحبات البطيخ بلونها الأخضر، واستدارتها الكاملة، يخرج ثمرا أصغر حجما منه، تنتشر فروعه في المكان وكأنه ينحي الجميع جانبا، ليسطو على مساحة ود باقية قبل أن تذوب وتتلاشى.

كان نبات الحنظل باستدارته وذيله الأخضر الطويل، قد تمكن من الحديقة وبسط رداءه بشكل يستحيل اقتلاعه.. وبرغم خضرته وذيله الطويل الذي يجره وراءه كطفل يمسك بذيل أمه حتى يشعر بالأمان ولا يخشى الذوبان وسط الزحام، إلا أنه ينمو وحيداً في البراري بعيدا يشعر وحده بالخوف والغربة.

أما النبتة البيضاء بلونها الناصع وصفائها الذي لا تَشوبه شائبة، تكشف عن سبر أغوار قلبها الطفولي الذي لم تلوثه حياتنا المادية بمتغيراتها وتقلباتها، والذي لم يفتح أبوابه إلا عندما دق هذا الحب بابه، ففتحت له الباب على مصراعيه، فعلمها كيف يكون الحب، ورعشة القلب عند رؤية الحبيب بخفقانه الذي لا يصمت، وبريق العينين الذي لا ينطفئ، تقفز بين طياته الفرحة كانت تختبر نفسها عندما تسير إلى جانبه وتتشابك الأيدي وتصر ألا تبوح بمكنونات قلبها فهو يقول إنه يفهمها من لمسة يد ورعشتها، من لمعان خاطف قرأه في مقلتيها.

فتبوح لشرايينها بما همس لها قلبها ويأتيها الرد في الحال فيضغط على يديها، وتبوح لها راحته بما تلفظ به قلبه، أما ثمرتها التي تشبه الليمونة قامتها مرتفعة في السماء، ناعمة كأنثى رقيقة برقة أغصانها ونعومة وريقاتها تملأ رائحتها المميزة كل مكان.. فالأترجة بلونها البرتقالي الذهبي تشع دفئا وجمالا، أحست «مرام» أن هذه النباتات أعادت بسمة كادت تفلت وتذوب من على شفتيها..

عادت «مرام» من شرودها وقالت له:

– هل قررت أن تحول أبحاثك إلى كلية الزراعة؟

ضحك «هيثم» وراح يقول لها:

– لقد سمعت عن فوائد الحنظل بالنسبة لمرضى النقرس، وكما تعلمين أن نوباته زادت على في الآونة الأخيرة، فقررت أن أجرب فوائده،

غير أن فوائد الأترج كثيرة، كما أني أحب رائحتها الذكية وهي تفوح في أرجاء المكان وكأنها مكلفة برسالة تنشرها بين الغادين والرائحين..

ابتسمت «مرام» وهي تقول له:

- خرجنا من الزراعة لكلية الآداب فلقد أصبحت شاعراً، عموماً يا عزيزي إن الاتجاه للتداوي بالأعشاب والنباتات في الفترة الأخيرة يحظى باهتمام بالغ على أيدي المتخصصين ولا ضير من ذلك جرب ولنرى النتيجة بأنفسنا..

لم يعقب «هيثم» على حديثها الأخير واكتفى بإيماءة من رأسه وفتر ثغره عن ابتسامة تعبر عن انشغاله وشروده بما يقوم من وضع وتنسيق النباتات.

راح «هيثم» يفصل حبات الأترج الذهبية ذات الرائحة الذكية، ويفصل قشرها عن لحمها بما تحتويه من فلافونيدات تلك الصبغة التي تذوب في الماء، والتي تعطي الأزهار والفواكه وبعض الأوراق ألوانها الزاهية، ونسبتها عالية في حبات الأترج بلونها الأصفر الذهبي.

راح «هيثم» يستخلص الكاروتين وهو عبارة عن تربينات صبغية تدخل في عملية البناء الضوئي، لها لون برتقالي وهي تفيد في عمليات التخليق الضوئي، ويضيف عليها المواد البكتينية والتي تتحلل بسهولة ويسر عن طريق الأحياء الدقيقة، ويخلط كميات متناسبة من الحنظل

مع نسبة تماثلها من حبوب الأترج ويضع عليهما بعض السوائل وصنع منهما ما هو شراب وماهو دهان، وعندما حل به التعب وأنهكه العمل دهن جسده بأكمله من ذلك الدهان واستسلم للنوم في حرية تامة.

استيقظت «مرام» لتجد مشهدا غريبا .. أحد العقارب يتجه ناحية «هيثم» لكنه يغير اتجاهه سريعا مبتعدا عنه.. بعد قليل ظهر عقرب ثان فعل ما فعله الأول ثم ثالث فرابع.. العقارب تتجه نحوها بسرعة رهيبة تاركة هيثم. لفت نظرها هذا الدهان الذي طلى به «هيثم» جسده بأكمله، تسربت إلى أنفها رائحة غريبة ربما ليست كريهة وإنما نفاذة..

شعرت «مرام» برغبة قوية في تغيير مكان نومها .. خرجت إلى غرفة مجاورة بعيدا عن «هيثم». لم تدر السبب الحقيقي الذي أبعدها عن مكان نومه، ورغبتها الحقيقة في الخروج من المكان في التو واللحظة دون تأخير.

أطرقت «مرام» وقد اعتلى وجهها الشحوب واحتواها الكدر يقترب منها «هيثم» وهو يسألها :

- «مرام».. ماذا بك؟

سكتت قليلا وهي تقول:

- لا شيء..

ثم خرجت من غرفتها فلحق بها وهو يناديها :

– مرام.. انتظري.. لقد كنت أقوم بعمل تجربة ما وبالطبع كنت سأخبرك بتفاصيلها..

نظرت له بتحد وهي تقول بحدة:

– عندما تشعر بأنك تريد أن تقول لي شيئا فسوف أكون في انتظارك.

رمقته بنظرة ذات معنى وتركته ومضت خارجة من غرفتهما إلى المعمل، وكذلك فعل الشيء نفسه..

راح «هيثم» يكتب باهتمام بالغ دون توقف أوانقطاع ربما لمدة ساعة أو أكثر وهو يعمل بانهماك ملحوظ. عندما أفاق من انكبابه على أوراقه، وجد شيئاً ما مُسجّىً على الجانب الآخر من الغرفة.. صندوق زجاجي به فتحتان إحداهما بها بقعة كبيرة من «الدم» كانت «مرام» قد أخذت عينة من دمها ووضعتها داخل الصندوق المليء بالعقارب الصفراء والمليئة بالسائل الأصفر الإشعاعي.. كما أشار عليها الدكتور شاهين رسلان، لتتأكد من صدق نتائجها..

مشهد غريب تقشعر منه الأبدان، العقارب تحوم حول بقعة الدم وكأنها تتسابق عليها.. وصل عدد العقارب التي تجمعت حول البقعة إلى مائة عقرب، هو كل ما استطاعا جمعه ووضعه في القنينات الزجاجية خلال الفترة الماضية أو بمعنى أدق كل العقارب التي هاجمت «مرام»..

راح عقلها يدور كقمر منفلت عن مداره راح يبحث له عن كوكب يدور في فلكه، حتى استقرت بعد قليل على فكرة لمعت في عينيها فانكبت على ورقها لتسجل ملاحظاتها أولا بأول.. كما اعتادت منذ بدأت بحثها عن العقارب، أسرعت «مرام» بتناول المحمول واتصلت بصديقة لها تعمل صحفية في إحدى وكالات الأنباء العالمية:

- صباح الخير يا «لبنى».

- صباح السعادة يا «مرام» ترى هل لديك جديد؟

أجابتها:

- لدي خبر لو قلته لك لأغمي عليك.

- إذن قولي..

أجابتها «مرام»:

- «لبنى».. أريد منك أن تخبري كل المجلات والدوريات العلمية المتخصصة أن حدثاً علمياً مهما سوف ينطلق من معملي غداً الساعة الحادية عشرة صباحاً.

حاولت «لبنى» أن تعرف منها تفاصيل الخبر، لكن «مرام» كانت شديدة الحرص فلا تبوح بشيء.. كذلك اتصلت «مرام» بالدكتور «محمود» والدكتور «رسلان» ولم تتفوه بحرف أمام أي شخص.

-١٧-

مر الليل بطيئاً كحثيث الأفاعي، تبغض «مرام» الكائنات البطيئة، تجلب لها التوتر والعصبية، وعلى حد قولها:

- هذا البطء يفقع مرارتي وأنا لا أملك سوى مرارة واحدة.

يالها من ساعات خطرة، كم يغلف الخطورة الحثيث، إنهما وجهان لعملة واحدة لا أدري تلك العلاقة الحميمة بينهما الخوف والبطء، لماذا لا نشعر بالبطء سوى في تلك اللحظات الخطرة الحرجة، والتي يصعب علينا اتخاذ قرارتنا، أو نقع حيرى بين أمرين يصعب علينا ثالثهما، تمر علينا الثواني كالدهور، تشبهني بعجوز شمطاء تتشبث بأذيال الحياة وترفض تركها حتى لو جرجرتها وراءها ومسحت بها الدنيا أرضها، ولماذا تفر الأوقات السعيدة فراً، دون أن نتوقف عندها إلا بعد أن تتسرب من بين أيدينا، أنترقب أن يكشف النهار عن وجهه دون مواربة؟

ربما يحمل لها اليوم الجديد ما يبدد حيرتها ويقضي على قلقها، ويضع حداً لمخاوفها التي أصبحت صديقتها الأثيرة، لقد أصبحت «مرام» ومخاوفها توءمان لا يمكن فصلهما، كما أن الخوف والبطء شقيقان لا يفترقان منذ الأزل، ربما تشعر كل منهما بالأخرى فهي تتوق ليوم الخلاص يوم تتحرر فيه من كل القيود وتكسر الخوف على أعتاب الحرية..

تواقد الصحفيون ورجال الإعلام وبعض العلماء وهم يتوقعون حدثاً جللاً أو اكتشافاً علمياً مثيراً، فمنذ الساعة العاشرة صباحاً وهم يتدفقون على بيت «مرام» وزوجها «هيثم» لا يعلمون من الأمر شيئاً.

الجميع يسأل ولا أحد يجيب، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة تماماً فتح الستار ليكشف النقاب عن بعض الغموض الذي يحيط بالموضوع، يظهر على خشبة المسرح صندوق زجاجي، تتمدد فيه امرأة تقترب الكاميرات بعدساتها لتتضح الصورة شيئاً فشيئاً، نجد الكاميرا تقترب من وجه امرأة لم تكن هذه المرأة سوى «مرام» يحيط بها حشد كبير من العقارب، على الناحية الأخرى من الصندوق كان «هيثم» قد وضع نفسه في صندوق زجاجي مشابه لذلك الصندوق الذي تمددت فيه «مرام» وقد بدا جسده يتلألأ تحت الأضواء وكأنه صقل بمصهور الحديد و طلي بمادة صمغية لامعة تعكس الأضواء وقد أكسبته مظهراً من مظاهر القوة بطلاً يهب من رقاده ليخطفها على حصان، ويحطم كل القيود ويخطفها من مخاوفها لينسج لها الأمان بمغزل من حرير في زمن عز فيه الأمان وفقدت فيه الفروسية وانعدم فيه الرجال.

كانت الفتحة الأخرى تتصل بالعقارب، غير أن العقارب تترك الصندوق الذي يتمدد فيه «هيثم» وتمر إلى حيث ترقد «مرام»، الجميع يرى ولا يصدق ما تنقله الأعين، ظاهرة غريبة حقاً.. راح المصورون والصحفيون يركزون في كل لقطة من اللقطات فهذا حدث نادر لا يتكرر.

ابتسم دكتور «محمود» وهمس في أذن دكتور «رسلان» ببعض الكلمات الذي راح بدوره يعلن عن ابتسامة وعي وفهم لما يدور حولهما.. وكأنهما قد فوجئا بالبطلة بالرغم من أن فصول الرواية قد كتبت بمعرفتهما وإشرافهما ولكن يبدو أن البطلة وضعت فصلاً مشوقاً قبل الفصل الختامي يدور في أروقة الصحافة والإذاعة والتلفزيون، قبل أن تناقش الرسالة في أروقة الكلية.

لم يصدق الحاضرون التجربة الحية الماثلة أمام أعينهم، وراحت وكالات الأنباء ومختلف الجرائد والمجلات تتناقل الخبر وتفاصيل التجربة، التي حملت جميعها عنواناً واحداً وهو سيدة العقارب تتحدى الجميع، سيدة العقارب تحطم الرقم القياسي في النوم مع أكثر من مائة عقرب داخل صندوق زجاجي، سيدة العقارب تستحوذ على شركات الأدوية بقدرتها على استخلاص سم العقارب لاستخدامه في علاج الأورام السرطانية..

-١٨-

لم تنم «مرام» برغم ما تشعر به من التعب والإرهاق اللذين استبدا بها، ورغم نجاح التجربة على المستوى العلمي والإعلامي، إلا أنها تشعر بأحاسيس لا تستطيع تفسيرها لا يمكن أن تصفها بالسعادة.

تشعر بتقلباته في السرير لا يفصلهما سوى سنتميترات قليلة، ولكن بينهما صحراء واسعة لا تجد فيها نبتة خضراء تمنحها الأكسجين الذي تحتاجه لتكمل به مسيرة حياتها معه، تتمنى لو استدار فجأة

نحوها وضمها إليه في حضنه الدافئ، وقبلها بحرارته التي اعتادتها منه دائماً، تشتاق إليه ليته يفعل كما كانا من قبل في لحظات خصامهما، قفز إلى ذهنها سؤال ولكنه لم يحدث ما يستوجب جبال الجليد التي نشأت بينهما، ربما يثور بركان الحب الذي خمد فجأة، ساعتها سأبوح له بكل شوقي وحبي اللذين صارا غريبين عنه.

راحت تسأل نفسها ترى ما هذا الشعور الذي تسرب إلى نفسها، وهل وصله إحساسها، وبماذا تفسر النتيجة التي وصلت إليها والتي أحدثت شقاً في جدار عمريهما لن يلتئم. على الرغم من عدم حدوث ما يعكر صفو حياتهما معاً إلا أن حدسها لا يخطئ أبدا..

تشعر بصدره يعلو ويهبط بشكل غير منتظم، تسمع دقات قلبه وكأنها خارجة من أتون وصل لدرجة الغليان.. وجهه الغاضب يبوح بأكثر مما يحاول أن يخفيه، لم تعد تر في عينيه تلك النظرات الحانية العطوفة التي كانت تأنس بها، حتى نبرات صوته الحنونة ضاعت وسط زحام العقارب، وكأن حبهما اختنق داخل المعمل بصندوقه الزجاجي، والحب لا يحتمل الصناديق الزجاجية بل يحيا طلقاً في الهواء تحت أشعة الشمس.

انتظرت أن يدير ظهره إليها، أو يحرك شفتيه باسمها لكنه لم ينبس أي منهما بحرف واحد وكأنَّ التجربة العلمية اليوم وسط لفيف من الإعلاميين ألجمتهما. شيء ما حدث الليلة فرَّق بينهما.

مرت الليلة بحلوِّها ومرِّها، وانفرج فم النهار الجديد عن ابتسامة حزينة باهتة، لم تعهدها على شفاهها، أحب فيها ابتسامتها المشرقة

الغضة بإكسير الحياة، أحبت ابتسامته الحنونة التي كانت تتلمس فيها حناناً جارفاً حين يهمس في أذنيها :

كم أعشق ابتسامتك لأنها صريحة مثلك..

رددت «مرام» بينها وبين نفسها أنا أيضاً كنت أعشق إطلالتك عندما تنفرج شفتيك وتكشف عن ابتسامة حلوة أعشق من خلالها نفسي والحياة.

حاولت «مرام» وهي تنظر في المرآة أن تجعل شفتيها تفرج عن ابتسامتها المسروقة ولكن دون جدوى، تذكرت حديثها مع «هيثم» ذات يوم وهو يقول لها :

- أن الابتسامة هي أرقى تعبير عن الحزن.

ولكنها خالفته قائلة:

- الابتسامة هي السعادة هي المستقبل هي روح التفاؤل الذي تمنحنا حياتنا القادمة وتمكننا من نسيان الماضي الأليم.

تذكرت يومها لم يقتنع بكلامها حين قال لها :

- عزيزتي.. الحزن صديق.. اعتدت أن أجالسه ورفيق أخالطه.. فهو وليد التجارب.. كل شيء في الحياة له محطة يقف عندها، فالطفل يكبر، والصديق يرحل، والزهور تذبل، كما أن نضارة الشباب وألقها تبتلعها خشونة الشيخوخة، وكأنها لم تكن..

وتذكرت عندما أبدت اعتراضها قائلة:

- لا .. يا «هيثم» لا أوافقك، لا يمكن أن نصادق الحزن ربما نخالطه فهذه سُنَّة الحياة، لكننا لم نختره.. «هيثم» الحب بحر يتلاشى في محيط الرغبة في الامتلاك أو الأنانية، والصداقة تقتلها أنانية الفرد وحرصه على نفسه، والثروة تصبح ذات يوم بلا معنى عندما يختطف الموت من نحبهم. وعندما تفتح باباً واحداً من السعادة فستفتح لك آلاف الأبواب من الشقاء..

أجابها :

- هذه حقائق يا عزيزتي.. ففهم الإنسان العميق للحياة يفتح أمام القلب البشري منبعاً واسعاً من الحزن، وأن الإنسان الناضج هو الذي فهم بعمق فالحزن دليل المعرفة.

وجدت نفسها تردد عبارات قالها «هيثم» ذات يوم أمام مرآتها :

- أجل.. معك حق فالحزن دليل المعرفة وهذا ما ملأ قلبي الصغير حزناً وأسى، ولكلٍّ منّا له نبع صغير لحزنه الذي يعبِّر عنه بطريقته، وكلنا طرف في هذه المأساة، فمنا من يذرف الدموع على حاله، ومنا من يسطر الكلمات، ومنا من يعيش لفترات تقصر أو تطول في نوبات اكتئاب، وكثير منا لا يستطيع تخطي حاجز الحزن حتى الممات، ولكن عزيزي المبتسم هو من ترفَّع عن الحياة بعد أن أعاد اكتشافها وعرف وجهها المظلم..

-١٩-

حالة فريدة تلك الحالة التي انتابتها اليوم ما بين الحزن والأسى، وعدم الارتياح وعدم الفهم لأشياء كثيرة حولها ربما لأنها لم تنم جيدا، ربما فهي أعلم الناس بنفسها، فمزاجها لن ينصلح إلا إذا عادت ونامت وشبعت نوماً، ولكنها اليوم لابد أن تذهب لمقابلة دكتور «محمود شكري».. استقبلها دكتور «محمود شكري» بابتسامة مرحبة وهو يقول:

- أهلاً بسيدة العقارب..

ابتسمت «مرام» رغما عنها وقد لاحظ الدكتور «شكري» فتور همتها وإرهاقها الزائد عن الحد فقال لها :

- لا يمكن أن يكون هذا هو حال سيدة العقارب واحدة من أشهر نساء العالم وطبيبة لها باع في مجال العقارب يستشيرها أشهر أساتذة العالم في تخصصها الدقيق. ماذا بك يا «مرام» اليوم؟

- نعم لقد نجحت كطبيبة وفشلت كزوجة..

هاله رنة الأسى التي تتحدث بها فقالت له:

- أصبح الوضع بيني وبين «هيثم» غريباً وغامضاً.

- يجب أن تعلمي يا «مرام» أن الحياة مليئة بالطلاسم وعلينا أن نكون حاذقين في فك طلاسمها، لقد تعرض «هيثم» لهزة عنيفة عندما لمع نجمك بعد بحثك المتفرد فأصابته غيرة.. لكنها مجرد غيرة علمية.

ضحكت «مرام» بمرارة وهي تقول :

- كنت أتمنى ذلك ولكنني... اكتشفت أن حياتي معه مهددة..

ثم أجهشت، فقال لها دكتور «شكري»:

- التهديد الحقيقي أن تستسلمي لهذه الأوهام.. حاولي أن تصلحي ما بينك وبين زوجك.. حاولي ألا تشعريه بما وصل إليك من غيرته نحوك..

طأطأت رأسها وقالت له:

- سأحاول..

-٢٠-

عادت «مرام» إلى المنزل، حاولت أن تبدو طبيعية، لكن الزجاج المشروخ لا يمكن إعادة لحامه.. فاجأها بهدية يحملها لها، يبدو أنها ثمينة من حجم العلبة الكبير وتلك اللفافة التي غلفتها وذلك الشريط الذهبي العريض الذي يحيط بها، ذهب بنفسه ليعد المائدة.. أطفأ النور.. أوقد الشموع.. وفي جو رومانسي رائع قدم لها هديته قائلا:

- لا تفتحيها قبل أن نرقص معا ..

راحا يدوران معا في فلك الغرفة، أخذها بين ذراعيه برشاقة، مدّ يده برقة بالغة حاول أن يلمس يدها لكنها ظلت جامدة مكانها، عاود

الكَرَّة انحنى برقة ليقبِّل يديها، ظلت على جمودها، بكل حذر رفع يدها لثمها بشفتيه، وأنزلها بكل حرص خوفاً من غضبها.

كانت يداه مبسوطتان مفتوحة عن آخرها، مستعدة للانقضاض على أي هدف يتحرك بالقرب منها رائحتها مميزة، أنصتت إليه، أخذت ترقب حركاته عن بعد دون أن تظهر له ذلك، لمحت أنه يبدو متوتراً، يخشى مواجهتها، ولا يجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك، راح يتمنى في قرارة نفسه أن تصمت تماماً عن الحركة، ليتأكد من شعورها..

آه.. لوعرف مشاعرها تجاهه.. آه لو تصمت برهة عن الحركة، ساعتها ستتحقق كل أحلامه.. راح يحدث نفسه، لكن ماذا لو تحركت؟

تقدم بضعة خطوات حتى وجد نفسه قبالتها، ما زالت كقطعة من الرخام الأملس، وعندما شعر أنها أنست إليه مد يده برقة بالغة، التقط الفراء ووضعه على كتفيها ظلت على جمودها، بكل حذر رفع يدها لثمها بشفتيه، شعرت أن ثمة شيء ما يسير على ذراعها عرفت خطواته جيدا وجدته عقرباً صغيراً من النوع الأسود وليس من ذلك النوع الذي اعتادت عليه أصفر اللون

دفعته بهدوء وهي تنظر في «هيثم» بينما ما زالت تراقصه، بل تدور حوله، بدا عليه الارتباك أكثر، راحت تقول له بلهجة ساخرة:

– يالها من هدية رائعة كنت أنتظرها منذ زمن بعيد، وجاءت في الوقت المناسب، لتكشف لي أشياء كثيرة، كنت أشعر بها ولا أجد لها تفسيراً، كثيراً ما لامني قلبي على سوء ظني لكن عقلي كان يؤكد لي،

لقد قرأتك مبكراً يا «هيثم» فعيناك لا تكذب مثلها مثل عقاربك التي كنت تدسها لي من حين لآخر، في دولاب ملابسي وفي غرفة نومي وعلى فراشي أي حقد هذا الذي تمكن من قلبك؟ يا لصبرك حتى تضع تلك العقارب في ذلك الفراء الجميل لقد شوهت الحب في قلبي كما شوهت الفراء.

ثم ألقت بالفراء في وجهه، لكنه بحركة لا إرادية أشاح بالفراء بعيداً عنه في خوف وارتباك.. انتشرت العقارب السوداء في كل مكان... ارتبك «هيثم» ولم يستطع النطق بحرف واحد.

أسرعت تقول:

- لقد فاتك يا حبيبي أنني متخصصة في ذلك النوع الأسود أيضاً، وبكل هدوء تطالعها العقارب التي خبأها لها.

قالت له :

- فاتك شيء واحد فقط لم تحسب حسابه جيداً أن تحسب حساباً للشبث وهو ألد أعداء العقرب فإن استطاع الشبث قضم ذيل العقرب انتهت المعركة لصالحه..

لقد اخترت منذ البداية أن تكون عقرباً وعلي الآن أن أكون الشبث..

كانا يدوران حول بعضهما البعض.. فبدا وكأنهما يرقصان. أصبح قبالتها وجها لوجه وراحا يلفان ويدوران، يكملان رقصتهما معاً.. رقصة العقارب.

مهسوري

-١-

هبت نسائم الصباح الباردة، فسرت بجسدي قشعريرة.. تدثرت بالجاكيت الجلدي.. وانكمشت بمقعدي في الطائرة أتطلع إلى كتل السحاب التي تحلق حولنا من كل جانب، وكأنها كرات ضخمة من الثلج، تتداخل وتتعانق فيما بينها، انتبهت على صوت جارتي بالطائرة تحدثني وفي الحقيقة كانت تحدث نفسها:

- الطقس اليوم سيئ للغاية.

عقّبتُ..

- ما كان ينبغي أن أسافر اليوم، وأرجأت الرحلة ليوم آخر.

ابتسمت في غموض وهي تقول:

- المضطر يركب الصعب، والغد مجهول كتلك الأرض التي تختفي خلف السحاب، لا يبدو منها شيء.

- بالفعل.. العمل يضطرك لفعل أشياء كثيرة لا تروق لك.

ظهرت المضيفة الماليزية بعينيها الضيقتين وفمها الدقيق وابتسامتها العذبة، متمنية السلامة للركاب في الرحلة ٥٣٩، وأن بإمكانهم حل حزام الأمان بعد أن اتخذت الطائرة طريقها في الجو، لم تغفل عيني عن مؤشر الحرارة الموجود على الشاشة الصغيرة أمامي والتي تشير إلى درجات تتراوح بين الصفر وعشر درجات تحت الصفر، كلما زادت الطائرة في الارتفاع.

كنا نتناول طعامنا بينما تم التعارف بيني وبين جارتي في الطائرة عندما بادرتها بسؤالي:

- أهذه هي المرة الأولى التي تذهبين فيها إلى ماليزيا؟

أزاحت خصلة من شعرها الذهبي تدلت على عينيها فجعلتها أكثر إثارة وهي تقول بلغة أشبه بالسحر:

- لم أكن أعلم أن جمال الطبيعة خص ماليزيا وحدها بهذا الجمال الساحر الأسطوري ولا سيما جزيرة «مهسوري» القابعة في حضن المحيط الهندي، وكأنها قطة تلوذ بحضن أمها الدافئ فكل جزر أرخبيل الملايو وماليزيا والمالديف رائعة، تجولت فيها جميعاً بل عشت فيها أياماً أعتبرها أجمل أيام حياتي، وكلما ضاقت نفسي بما حولها، أحمل حقيبتي وأتوجه مباشرة للجزيرة، فأنا دائماً على موعد معها.

ضحكت وأنا أقول مازحاً:

- أشاعرة أنت؟

لم تزايلها الابتسامة العذبة وهي تقول:

– بل ذواقة للجمال، أراه في عيني الطبيعة الساحرة، وسريان بحرها وعلو أشجارها السامقة، بل وطيورها السارحة في أعالي السماء ترفرف بحرية نتمنى جميعاً أن نصل إليها.

– يبدو أنك حديث العهد بماليزيا.

– بالفعل.. هذه هي المرة الأولى التي أزورها، بعد أن سمعت عنها الكثير.

– سياحة؟

– بل عمل، فطبيعة عملي كصحفي دفعتني للذهاب إلى هناك لإجراء بعض التحقيقات.

انتبهنا فجأة على علامة حزام الأمان وهي تضاء، تبعها صوت – قائد الطائرة يقول بلهجة تحذيرية:

الرجاء إحكام إغلاق حزام الأمان، لأننا نمر بمنطقة منخفضات جوية.

نظرت لها بطرف عيني وأنا أقول:

– صدق حدسي، فمنذ ركبت هذه الطائرة، وأنا أشعر بجو غريب يكتنفه الغموض دون سبب واضح، وها نحن قبالته وجهاً لوجه.

كانت تسند رأسها على المقعد، ثم التفتت إلي:

- هذا أمر طبيعي فالطريق إلى ماليزيا مليء بالمطبات الهوائية، التي ستشعر بها بنفسك بعد قليل، ما زلت أذكر نفسي في رحلتي الأولى.. مع أول المطبات كادت روحي أن تزهق، لكن سرعان ما اعتدتها، وعدت استمتع برحلتي.

واجهتني بعينيها الجذابتين العميقيتين، فشعرت باضطراب في قلبي، وكأن المطبات الهوائية أصابتني بالفعل قبل أن تصيب الطائرة، فأخذتني في هوة سحيقة لا أعرف مداها، وقد ظهر عليَّ الارتباك، وزاغت عيناي، واضطربت يداي.

أدركت الحسناء ما فعلته بي فأرسلت ضحكة ترنحت في الهواء عندما سقطت الشوكة من يدي فالتقطها لتسقط السكين وقد زادت المطبات انخفاضاً، وها هي تعلو بي مرة أخرى وقد جعلت قلبي يتعثر في الطيران بهذه الخلخلة القلبية، وضحكاتها المتعالية الساحرة وربما أثرت على حركة الملاحة الجوية.

لم تمر سوى دقائق قليلة، حتى شعرنا باضطرابات جوية.. كنت أحسبها توابع تأثير جارتي الحسناء علي.. لا.. ليست مجرد مطبات لقد سافرت كثيراً بالطائرة، وشعرت كثيراً بتلك المطبات التي تسحب الطائرة إلى أسفل بقوة أما ما حدث، فهو أشبه بدوامة جوية أخذت الطائرة معها في عشوائية جنونية، وكأنها وقعت في أسرٍ مارد جبار خفي يعبث بها.

انتفضت رفيقتي من مقعدها، وهي تحملق خارج الطائرة، كأن مساً كهربائياً أصابها عندما نظرت إلى ما شد انتباهها فوجئت بالتماعة برق خاطفة تندلع بالقرب من الطائرة وقد أحاطت بها من كل جانب، أفاق بعض ركاب الطائرة من إغفاءتهم ساد هرج ومرج أرجاء الطائرة، وراح طاقم الطائرة يحاول أن يهدئ من روع الركاب وبكاء الأطفال والسيدات، بينما كانت المضيفة تقول:

- أرجوكم الزموا مقاعدكم واربطوا أحزمتكم.. الهدوء.. الهدوء يا سادة..

أدركت أنها الرحلة الأخيرة في حياتي، أحسست أني أنتقل للعالم الآخر، وأن روحي تُسحَب مني. بدا المنظر غريباً، كأنني محاط بأشباح أراها تتحرك أمامي لا أعرف كنهها، لا لم تكن أشباحاً بل كرة متوهجة لونها أبيض يميل إلى الزرقة، سابحة في فضاء الطائرة تتحرك بحرية عبر المكان، وتنزلق داخل الطائرة بصمت بالغ حتى اختفت في مؤخرة الطائرة تاركةً رائحة نفاذة أشبه برائحة الكبريت ومخلفة بعض الرماد الأبيض الذي تناثر هنا وهناك.

جلس الجميع لا يبدون حراكاً، وقد حبست الأنفاس وتلاحقت العيون، وعلت دقات القلوب تتابع الكرة المتوهجة، وهي تمضي في حركة منتظمة على طولِ الممر، متخذة طريقها بينهم حتى اختفت.

ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ هل انفجار مروع تتناثر بعده الأشلاء والأشياء في كل مكان؟ هل سقوط وتداع وانسحاق في أعماق سحيقة سنغيب ونغيب دون أن نصل إليها؟ هل نيران متأججة تبتلعنا

في طياتها لنمسي بعدها هباءً تذروه الرياح، ونصبح مجرد خبر في صفحة الحوادث دونٍ أن يلتفت إليه الكثيرون، أو ربما ينتبه البعض فيمصمص شفتيه ألماً وحسرة.

رحت أستسلم للمصير بقلب واجف وأصابع مرتعشة وعينين زائغتين. عندما التفتُّ إلى جارتي للاطمئنان عليها، ولهول المفاجأة لم أجدها مكانها، وكأن الكرة أخذتها في طياتها واختفت بها، أعلنت المضيفة أننا سنضطر للهبوط الاضطراري بالهند حتى نطمئن على سلامة الطائرة.

شعرت بالقلق يزداد، ودقات قلبي تعصف بي مزمجرة كالرياحٍ العاتية، تعلو على كل الأصوات، وصاحبَت الهبوطَ الاضطراري رعشةٌ اضطرارية شملت جسدي كله، واصطكاك ببعضها حتى حروفي تبعثرت وأفلتت مني كحبات الأرز المتناثرة هنا وهناك، ولا أستطيع الإمساك بحرف منها.

ورغم كل ما انتابني من قلق وتوتر، وجدتها فرصة للتعرف على سابع أكبر بلد من حيث المساحة الجغرافية، والثانية من حيث عدد سكانها، فمن منا يستطيع أن ينكر أنها البلد الديموقراطي الأكثر ازدحاماً في العالم، كما أنها مهد حضارة وادي السند.

هبطت الطائرة بمطار «بومباي» بالهند، وعندما نظرت من الكوة الزجاجية بجانبي وجدت عدداً كبيراً من سيارات الإطفاء والإسعاف توقعاً لحدوث أمر ما. وعندما فتحت الأبواب اندفعنا نحوها ناجين بأنفسنا بينما الطاقم يطمئننا ويحثنا على الهدوء.

جلسنا في صالة الترانزيت بمطار «بومباي»، وكانت فرصة لالتقاط الأنفاس، واستعادة دمائنا التي فرت هاربة خلف الكرة المتوهجة، وإذ بي ألمح جارتي الحسناء قد ظهرت وهي تحمل فنجاناً من القهوة، ما إن رأتني حتى توجهت نحوي وعلى شفتيها ابتسامة رائعة فرحت أسألها :

- أين اختفيت ؟

ضحكت وهي تقول:

- لم أختف لكنني وجدت نفسي في مؤخرة الطائرة فوق أرجل أحد المسافرين، ولا تسلني كيف وصلت إليه.

ضحكت أنا أيضاً وعدت أسألها من جديد.

- تصوري لم أعرف اسمك حتى الآن؟

- ماهيتاب.. فنانة استعراضية.. وأنت؟

- محمود القباني.. صحفي.. سكت قليلاً ثم سألتها :

- أمسافرة للعمل.. أم للسياحة؟

ارتشفت رشفة من فنجانها وهي تقول:

- الاثنان معاً، لدي عقد للعمل بأحد الملاهي ولكن المتعة الكبرى أن تستمتع بجمال الحياة هناك، وبهذه المناسبة اسمح لي أن أدعوك

عندما نصل إلى هناك على سهرة رائعة لن تنساها ما حييت، فسوف أحيي افتتاح أكبر صالة في مهسوري، وأعدك ببرنامج غاية في الروعة والجمال، وعندها لن يكون اسمي «ماهيتاب».

تعجبت وقلت لها:

- هل ستغيرين اسمك؟

ضحكت:

- لا.. ليس بالضبط، ولكن عندما نكون أصدقاء ستناديني «ماهي».

قلت لها:

- أنت «ماهي» منذ الآن.

انتبهت على صوت أحد الركاب يبدو عليه الاتزان والوقار ويتحدث بلهجة علمية خبيرة:

- الأمر ليس طبيعياً على الإطلاق، فظهور هذه الكرة المتوهجة يحمل العديد من علامات الاستفهام، وجدتها تترك مكانها وتتجه نحوه وهي تسأل:

- وما تفسيرك يا أستاذ لما حدث؟

تبعتها وتحلقنا حول الأستاذ الذي قدّم إلينا نفسه دكتور «بسام الشندويلي» أستاذ الفيزياء بجامعة فلوريدا.

- أنا أعمل في هذا المجال ولي أبحاثي التي تتناول مثل هذه الظاهرة، وفي رأيي أنه من المبكر جداً أن نجد تفسيراً معقولاً لهذا الحدث.

رحنا نتحدث في موضوعات شتى، وانتقلنا من الحديث عن الكرة النارية التي ظهرت داخل الطائرة إلى ماليزيا وجمالها، وأخذ الدكتور «بسام» يصف لنا ذلك الجمال الذي يحيط بجزيرة «مهسوري» حتى تمنيت أن يمر الوقت سريعاً لكي أرى الجزيرة واستمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة.

شملتنا سحابة حانية من الألفة والود وبدأنا نتعارف، وقد دعانا الدكتور «بسام» إلى رحلة بحرية إلى الجزيرة عندما نصل، وأبدى الجميع الموافقة على الفور.

أعلنت صالة الترانزيت بمطار «بومباي» مواصلة الرحلة ٥٣٩ وعلى ركاب الطائرة التوجه إليها. كنا نتساءل فيما بيننا هل تم استبدال الطائرة بأخرى، أم أنهم سيواصلون الرحلة بالطائرة نفسها وجاءنا الجواب على لسان أحد عناصر طاقم الطائرة بأنَّ اللجنة الفنية التي قامت بفحص الطائرة قررت أنَّ الطائرة بحالة جيدة وليست بها أية عيوب، وأن ما حدث داخل الطائرة ليس إلا انعكاساً ضوئياً.

لمحتُ غموضاً واعتراضاً مكتوماً على وجه الدكتور «بسام» فملتُ عليه هامساً:

– يبدو أنك لست مقتنعاً يا دكتور..

هز رأسه وهو يجيب:

– بالطبع.. فالانعكاس الضوئي لا يترك وراءه أثراً مادياً كالذي شاهدناه على أرضية الطائرة ورغم أن الضوء يملك طاقة وينقلها في الفضاء إما بالأجسام أو بالموجات حول طبيعة الضوء إلا أننا لم نتمكن حتى الآن من تفسير جميع الظواهر البصرية.

هززت رأسي معقباً على كلامه، وفي الحقيقة كنت مقتنعاً بكل كلمة قالها.

واصلنا الرحلة من «بومباي» إلى «ماليزيا»، دون أن يحدث شيء غير عادي، ونحن نتحرك خارج الطائرة لمحت الدكتور «بسام» يقترب مني ويضع يده على كتفي ويقول بصوت خفيض:

– لقد علمت من أحد الفنيين الذين قاموا بفحص الطائرة أنهم استدلوا على وجود كرة النار داخل برميل من الماء، ارتفعت درجة حرارته بشكل كبير، وهذا في حد ذاته ينسف نظرية الانعكاس الضوئي.

سألته:

– وما تفسيرك يا دكتور؟

– كنت واثقاً من أن تلك الكرة ذات صلة بالعاصفة الرعدية، رغم أنه لا علاقة لها بالبرق ذاته. وأنها أطلقت عدة وحدات من ميجاجول

من الطاقة، وهو يساوي نتاج سخانات كهربائية تعمل بطاقة كيلو وات في الساعة، وهذا ما رفع درجة حرارة الماء في البرميل.

سكت الدكتور «بسام» قليلاً ونحن نجتاز الممر المؤدي إلى صالة الجوازات، ثم قال مواصلاً حديثه:

- إنني بحكم عملي كمسؤول عن معمل الكترونيات في جامعة فلوريدا، استطعت أن أحدد ذلك الشيء الغريب الذي ظهر عقب العاصفة الرعدية، فقطره لا يزيد عن عشرين سنتميتراً.

سألته مقاطعاً:

- معذرة يا دكتور كنت أتوقع حدوث انفجار؟

أجاب الدكتور:

- لا أعتقد.. لأن الحرارة المنبعثة عنه قليلة للغاية.

- هل يصدر عن هذا الشيء أية مغناطيسية؟

ابتسم وأجاب في ثقة وهو يخرج مطواة صغيرة وعلبة طباق:

- لا أظن ذلك.. لأن الأدوات المعدنية التي كانت بجيبي لم تتأثر كما ترى، وكل ما حدث أمام أعيننا يمكن أن نعتبره نموذجاً مجسداً لما يعرف بكرات البرق، التي عادة ما تحوم أو تتقافز أو تتحرك بلا نظام. فهى كتلة مغلقة من الضوء، كروية في العادة على شكل ثمرة الكمثرى في بعضِ الأحيان، ضبابية في إطارها وذات ألوانٍ متباينة.

كنا قد وصلنا إلى صالة الجوازات وبالرغم من متاعب الرحلة ٥٣٩، وما اكتنفها من غموض وتوتر وكرة النار التي ظهرت فجأة لتضيء عشرات من علامات الاستفهام فأفضل ما فعلته هذه الرحلة صداقتي للدكتور «بسام الشندويلي».

-٢-

يوم صحو تشرق فيه شمس الجزيرة كفتاة جميلة تمتطي الريح، وتشرع عيونها في الوجود فتبهر بجمالها من يراها، وقد نبضت الأجساد بحرارتها، وأكسبتها لوناً برونزياً، فراحوا يطفئون شوقهم بالغوص في مياه البحر لعلها تروي ظمأهم، وتهدئ من حرارة أجسادهم، ثم يخرجون في إنهاكٍ لذيذ يتمددون ويستلقون على رمالِ الشاطئ فتداعبهم الشمس وكأنهم أوثقوا بأهدابها فلا أمل في الفكاك من أسرها. بل أنها لو فكت قيودهم وأطلقت لهم العنان، ما استطاعوا التحرك بعيداً عنها قيد أنملة.

علت ضحكاتنا كمحرومين في دوامةِ العمل اليومي، بلغت سعادتنا ذروتها بهذا الجمع وحلاوة الانطلاق، دون قيود وكل منا على طبيعته، وبرغم أنني كنت متحفظاً في البداية فإنني سرعان ما أصبت بسخونتها، فذبت بين الجميع وأصبحت على سجيتي، وتواءمت حتى أصبح الكل كأفراد عائلتي، خاصة دكتور «جوزيف» وزوجته «جانيت» وولديهما، «مايكل» و«بيتر».

أسرة سعيدة تعيش الحياة دون تعقيدات، يعبون من حلاوتها عباً، فمدام «جانيت» طبيبة أطفال لديها حنان يكفي كل العالم، أكسبها التعامل مع الصغار براءة وتلقائية، راحت تطعمنا جميعاً من طعامها المميز، تسعدها إطراءاتنا على مشرطها الذهبي ومغرفتها الكبيرة، وهي تضحك ضحكتها الطفولية البريئة كأطفالها الذين تعالجهم، وتحنو عليهم نشيطة متحمسة لا تبقى على حال، هي التي تشيع روح المرح وتشارك في الغناء بصوتها الجميل، يزيد من نقاء صوتها تألق مياه نهر «المنكروف» وهي تسطع كدنانير الفضة على صفحة النهر، وقد رست بعض القوارب بألوانها الزاهية بالقرب من الشاطئ تنتظر في لهفة راكبيها، وقد امتدت أشجار المنكروف على امتداد الشاطئ موازية للجبال التي تظهر عن بعد في الجانب الآخر من الشاطئ.

بساط أخضر افترشه النهر بطول ساحله، ليكسو الطبيعة بجمالٍ أخاذ، فراح يداعب أنامل البساط فيغمره حيناً وينحسر عنه أحياناً أخرى، ويندمجان معاً في لحن من العشق الأبدي تفننت «ماهيتاب» في إبراز جمال وجهها هذا الصباح، فاختارت ظلاً لعينيها الواسعتين اللامعتين بلون السماء الصافية ليضفي عليهما مسحةً من الألق والجاذبية، وشعوراً بالراحة لكل من ينظر إليهما، ولكن هذا الشعور سرعان ما يتبدل فتشعر أنها تجرك إلى أغوار سحيقة لا تفهم كنهها، حاولت عدم الانسياق ولكنه شعورٌ طاغ لا تملك معه إلا أن تترك نفسك مستسلمة للأغوار السحيقة تفعل بكَ ما تشاء، أما طلاء الشفاه الذي وضعته كان لونه أحمرَ مثيراً، تشعر بالخوف كلما اقتربت منها لكي لا تطبق على ثمرتي الفراولة الطازجتين باحمرارهما الأخاذ، فتبعث فيك حرارة وانجذاباً، أما شعرها الذهبي فراح يبرق كخيوط من

ذهب وهو ينساب بطوله وينسدل على كتفيها ليخفي نصف ظهرها العاري والهواء يداعبه..

بدت «ماهيتاب» هذا الصباح كإحدى حوريات جزيرة الأساطير لنكاوي، كنا نتطلع إليها بنهم.. ولم يعبأ المتزوجون منا بنظرات الاستنكار من زوجاتهم.. والتي تطورت إلى تهديد ووعيد بل راحت إحداهن تلوح لزوجها بسكين كبير ورزمة من الأكياس السوداء فضج الجميع بالضحك.

بادرنا الدكتور «بسام» :

– لنكاوي جزيرة الأحلام كما ترون، المكان الأكثر جاذبية للمسافرين الباحثين عن مكان هادئ للاستجمام والاسترخاء وسط منتجعات تطل على البحر، في ظل طبيعة خلابة تجمع بين الغابات والشواطئ والجبال والرحلات البحرية في غابات المنكروف على المحيط الهندي، والمساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي تحتضن هدوء وجمال الريف الماليزي.

بادرته بسؤال يلح علي:

– من أين جاءت تسمية لنكاوي؟

– أشار الدكتور «بسام الشندويلي» إلى نصب شاهق اتخذ شكل نسر عملاق وراح يقول:

– كان علي أن أبدأ بهذا النصب انظروا إلى هذا النسر، يعتبر أهم

معلم على أرض لنكاوي للقادمين عن طريق البحر، ومن وجود هذا النصب بجوار محطة الزوارق، ولونه الذي يتردد بين اللون الأحمر والبني جاء اسم الجزيرة من هذا النسر العملاق حيث تعني كلمة «هيلانج» باللغة الماليزية القديمة النسر وتعني كلمة «كاوي» اللون البني ودمجت الكلمتان لتصبح كلمة «لنكاوي»، والنصب يحتوي على المطاعم والمظلات والحدائق والبحيرات، ولقرب النصب من البحر فإنك تستمتع بالتنزه في حدائقه والأكل في مطاعمه، وتشعر بالانتعاش بسبب نسمات البحر الهادئة، وهدير الأمواج التي تدغدغ آذان السياح فيشعرون أنهم ملكوا الكون بأسره.

تدخلت «ماهيتاب» برقة:

- لنكاوي، المكان المفضل للعاشقين والمحبين والأزواج لقضاء شهر عسل أسطوري..

قاطعتها مازحاً بخبث:

- ترى إلى أي جمهور تنتمين ؟ العاشقين أم الأزواج؟

ضحكت وقد فهمت ما أرمي إليه:

- أنا عاشقة لماليزيا محبة للنكاوي.. أتطلع لقضاء شهر عسل فيها. فبموقعها المميز تكتسب لنكاوي أهمية بالغة في إضفاء شعور بالهدوء والاسترخاء، وسط هالة كبيرة من الأماكن السياحية التي تملأ برامج السياح بالمغامرة والتشويق.

راحت «جانيت» تقول:

- قضينا فيها شهر العسل أنا و«جوزيف» وها نحن نعود إليها لتشهد على حبنا، وترى ثمرتيه تميل على زوجها «جوزيف» تنظر له بِوَلَـه.. تحتضن ولديها.

أما «جوزيف» فيربت عليها قائلاً:

- الأساطير جزء أساسي من تراث الأرخبيل المكون من تسع وتسعين جزيرة، فالعديد من الجزر المتناثرة في المحيط، ومعهاً المغارات والجبال، تحكي من التراث الشعبي مغامرات وبطولات يختلط فيها التراث بالأسطورة، والخرافة بالحقيقة، تشترك في تكوينها بطولات الفرسان وأميرات الجن والطيور الجارحة كالنسور، التي أصبحت شعاراً لهذه الجزيرة. انظروا ها نحن قبالة «تايلاند» حيث المنتجعات المثيرة وسط الحدائق وأشجار الكازورينا العملاقة، التي أصرت «جانيت» على حمل بذورها إلى منزلنا، لغرسها بعد عودتنا من شهر العسل، ونحن ندعوكم لمشاهدتها في حديقة منزلنا بعد أن أثمرت ونحصد ثمارها كل عام، فلتتذوقوا ثمار الكازورينا بمذاق الحب اللذيذ وتشربون نخب حبنا مشروب «جي جي» الحروف الأولى «لجانيت وجوزيف» وهو تركيبة خاصة ابتدعناها معاً.

أشار دكتور «بسام» للجميع:

- من يحب المغامرة ومصاحبة أسماك القرش فليستعد.. سنتجه معه حيث المغارات والكهوف داخل نهر منكروف وستستغرق الرحلة

خمساً وأربعين دقيقة بالفيري وهو بمثابة زورق بحري صغير لنقل الركاب.

ضحك الجميع وراحت الصغيرة «داليا» تسأل والدتها السيدة «جمانة سيف».

- وهل يمكنني اللعب مع أسماك القرش؟

ضحكت الأم وقالت:

- سنشاهدها عبر قارب زجاجي آمن وإلا ابتلعتنا.. وأصبحنا حساء مغذياً لصغارها.

رحنا نتجول في جزيرة لنكاوي ما بين رحلات للغوص وسط الأحياء المرجانية متعددة الألوان والفصائل، ونرى أسماك القرش ترضع صغارها. ولقد استفز هذا المشهد مشاعر داليا الصغيرة فراحت تقول لأمها:

- الأم ترضع صغارها، وماذا يفعل الأب إذن؟

فطنت الأم إلى ما ترمي إليه الصغيرة وقالت بنبرة حزينة:

- يرعاهما يا داليا.

لم تسكت الصغيرة وعلى ما يبدو خاضت في موضوع شائك لا تحب الأم أن تخوض فيه:

- ولماذا لا يرعانا أبي مثلما ترعى أسماك القرش أبناءها؟

غيرت الأم دفة الحديث وقالت:

- انظري يا داليا إنه نجم البحر.. حيوان مائي لا فقاري، وليس له دماغ وبالرغم من ذلك يحتوي على جهاز عصبي.

قالت داليا منبهرة:

- يعجبني شكله و أذرعه المتعددة وألوانه الخلابة. كنت أتمنى أن يكون لأبي كل هذه الأذرع ليحيطنا بها..

لم تعقب الأم على كلمات ابنتها وكأنها لم تسمعها، لكني لمحت دمعتين انحدرتا على خدها في محاولة لتجفيفهما، وكأن شيئاً ما تسلل إلى عينيها فأدمعهما.

عندما وصلنا إلى نهاية الجزيرة الصخرية في الجنوب الغربي استولت علينا الدهشة، فور رؤيتنا للحديقة المرجانية بمنحدراتها الصخرية وقد غطّاها المرجان الملون بشكل ساطع وقد رصع بأنواع عديدة من نجم البحر يتألق وكأنك ترى السماء على صفحة المياه.

توقفنا في هذا المكان، قمنا بالتخييم في غابة المنكروف بالقرب من النسور رحنا نطعمها، وكنا قد اصطدنا كميات كبيرة ومتنوعة من الأسماك.. قمنا بشيها على الطريقة الماليزية أو كما يطلقون عليها «بالباربكيو».

انطلقنا بعد ذلك إلى جزيرة «كورال ايلاند»، حيث حديقة التماسيح، ثم استرحنا في أحد المنتجعات السياحية وركبنا الباراشوتات.. رحلة مثيرة تنعم فيها بالمتعة والإثارة والتشويق، كانت الصغيرة «داليا» تصرخ من الخوف هي ووالدتها ولكنهما أبَتَا النزول.

لم نر جمالاً كهذا.. الشواطئ ونقاءها، الشلالات تنساب في عذوبة ورقة وكأننا في جنة تأبى أرجلنا الهبوط منها إلى الأرض، حتى لا تصطدم أرجلنا بواقع الحياة الصخري المليء بالنتوءات التي تدمي حياتنا فما أجمل التحليق بعيداً عن الأرض.

توجهنا بعدها حيث حديقة القرود التي تقع في منتصف المسافة بين «جورج تاون» العاصمة وبين «باتو فرنجى» الشهيرة، شاهدنا في الحديقة عدداً هائلاً من أنواع الأشجار وتبادر إلى ذهني سؤال:

- كيف وصلت تلك الأشجار إلى هنا؟

وعلى الفور راح «جوزيف» زوج «جانيت» يقص علينا قصة المهندس البريطاني الذي قام بجلبها وزراعتها، حتى يمثل جميع أشجار ماليزيا في منطقة واحدة، فنحن بزيارة تلك الحديقة قد زرنا كل أنحاء ماليزيا وشاهدنا كل ما ينمو فيها من أشجار.

تشير السيدة «جمانة» لابنتها قائلة:

- انظري يا «داليا» كثرة عدد القرود في الحديقة إنه يفوق الوصف والعدد ترى كم يبلغ عدد القرود في الحديقة؟.

راحت الصغيرة تعد القردة وفي كل مرة يختلط عليها العدد فتصرخ باكية شاكية لأمها، وبعد أن أسقط في يدها، حاولت أن ترمي القرودَ ببعض حبات الفول السوداني التي تعشقها، و القردة تلتقط حبات السوداني وترفع أيديها محيية «داليا» ومعبرة عن امتنانها و شكرها، وكلما رأت «داليا» القردة تحييها ازدادت سعادة وصاحت في فرحة غامرة.

كنا نستمتع بكل ركن من أركان حديقة القرود، حيث رأينا ركن نبات الصبار، وآخر للزهور النادرة، واصلنا السير داخل الحديقة على طرق معبدة عليها علامات للتعرف على معظم أنواع الأشجار داخل الحديقة، حتى وصلنا إلى الشلال، كان المنظر رائعاً للغاية وقد استبد بنا التعب فجلسنا حيث توجد استراحات أمام الحديقة، وقد انتشر الرسامون والمصورون لالتقاط الصور التذكارية الفوتوغرافية، ولم يمنعنا ذلك من أن نجلس أمام الرسامين الساعات الطوال لتخليد لوحات نادرة بريشتهم البديعة، على جسر «بينانج» وقد بدا كل منا وكأنه يطير من البرجين التوأم في شكل خرافي أسطوري، ويعود كل منا متأبطاً لوحته في سعادة.

أكملنا مسيرتنا داخل الحديقة حتى وصلنا إلى حديقة الفاكهة وهي على مقربة من منطقة «باتو فرنجي» الشهيرة، وهي حديقة توجد فيها جميع الفواكه والأشجار التي تزرع في ماليزيا، وتقع على مكان مرتفع مما يجعل الجو بارداً، راح المرشد الذي اصطحبنا يتكلم بعض الكلمات العربية ويشرح للزوار طبيعة كل شجرة، ويسمح للزوار باقتطاف بعض الثمار.

شعور خيالي فاق كل وصف نقطف الثمار.. نتنقل بين الأشجار، نغرد كالبلابل، نحيا كما نشاء حياة عفوية بسيطة لسنا فيها عبيداً للتكنولوجيا، عند عودتنا كان بانتظارنا طبق مشكل من أحلى فاكهة يسيل لعابك فور رؤيتك إياها، فاكهة طازجة بألوانها الطبيعية الخلابة. بدا السحر والجمال خرافياً، فالمكان مرتفع، يطل على الغابات ويبدو البحر من أعلى وكأنك تعيش في ألف ليلة وليلة مع الحسناوات وهن يتحولن من طيور إلى فاتنات حسان.

تعلقت عيناي بأصابع «ماهيتاب» وهي تضع إحدى الثمار الغريبة بين شفتيها وتلوكها بأسنانها الدقيقة المنتظمة وتدفعها إلى فمها ويبدو أنها لاحظت عيني وهما تتثبتان عليها فارتسمت على جانب فمها ابتسامة جذابة، سرعان ما تخلصت من هذا الشعور صائحة في براءة:

-مارأيكم في زيارة لمقام «مهسوري»؟

صحت قائلاً:

-ومن يكون هذا الشيخ « مهسوري»

انفجرت ضاحكة.. ثم قالت:

عندما نصل إليه ستعرفون من يكون.. إنه ليس بعيداً عن هنا.. بضعة دقائق سيراً على الأقدام..

سبقتنا «ماهيتاب» بعدة خطوات وهي تهبط برقة على درجات جرانيتية، والجميع يتسابقون خلفها وكنت أنا أسبقهم. حاولت أن أختلس اللحظات التي أكون قريباً منها لأنعم بالنظر إلى وجهها وأتجاذب معها أطراف الحديث وقلت لها مذكراً:

- بيننا موعد لم يتحقق حتى الآن، أم ستحنثين بوعدك؟

ضحكت وقالت:

- أنا دائماً أفي بوعودي، وخصوصاً إذا كان ضيفي صحفياً، يسجل كل وعودي ولديه الوثائق على ما يقول، لكن اطمئن يا عزيزي أنت مدعو الخميس القادم على افتتاح صالة لنكاوي.

أشارت «ماهيتاب» لمقام «مهسوري» وهي تقول:

- ها نحن قد وصلنا.

تلفت حولي لفت نظري انتشار تماثيل كثيرة في كل مكان لفتاة تنظر في صمت رهيب ينم عن شجن دفين، كأنها تقول هل عرفت قصتي؟ وجدت صورتها على تذكرة الطائرة وعلى الأظرف، في بهو الاستقبال بالفندق وداخل غرف النوم، في كل مكان حولي كانت نفس الصورة لنفس الفتاة، وعند مدخل الميناء وجدنا تمثالاً ضخماً لها عندما سألنا عنها قالوا إنها.. مهسوري قلت لها:

- يبدو المكان مثيراً بالفعل من تلك الفتاة التي تحتل بصورها كل مكان في لنكاوي.

– إنها «مهسوري» فتاة غاية في الجمال تعيش مع والدها العجوز وأخيها الصغيرالذي تهتم بشئونه بعد رحيل أمها، والدها يعمل تاجراً بسيطاً كثير الترحال إلى الجزر المنتشرة والمتناثرة في أنحاء ماليزيا وما حولها في المحيط، تنتظره ابنته الجميلة «مهسوري» بالشهور حتى تراه لمدة أيام معدودوة ثم يعاود الترحال من جديد، وجهته هذه المرة إلى «بانكوك» سافر الأب وبقيت الابنة وأخوها الصغير كعادتهم في انتظار عائلتهم، لكن الشيطان المتمثل في شباب الجزيرة استحضر قواه هذه المرة فذهب ثلاثة شبان من علية القوم في الجزيرة ليلاً الى كوخ «مهسوري» وطلبوا منها أن تمكنهم من نفسها، فلاشيء يرتجى من أب عجوز غائب عنها لا يوفر لها الحماية والأمان، وسيكونون لها عوناً وسيكتمون السر، رفضت هذه الشريفة فهددوها فلم تزد إلا اصراراً على الحفاظ على شرفها ولو كلفها حياتها.

في الصباح وخوفاً من أن تفضح أمرهم اتفق الشبان الثلاثة، وأشاعوا بالجزيرة أن «مهسوري» بغي وتمارس الفاحشة وتمكن الرجال منها مقابل المال وأن تجارة والدها من البغاء ووجدت إشاعتهم المساندة من فتيات الجزيرة اللاتي أصبن بالغيرة من «مهسوري» لجمالها وكانوا يتمنون موتها.

وشاعوا بالجزيرة أنه قد داهم الرجال بيتها وكان والدها في المنزل، سحبوها إلى منطقة قريبة، ربطوها الى شجرة وأخذوا يطعنونها بالخناجر في بطنها وصدرها، لكنها لم تمت لمدة ثلاثة أيام وكان والدها يأتيها كل يوم وهي مربوطة بالشجرة ولم تنزف من أثر الطعنات فقالت له:

- يا أبي دعهم يطعنون قلبي المتعلق بالله فإن به موتي وبه يستريحون مني.

فجاء أحدهم بخنجره وطعنها في قلبها من أعلى رقبتها ونزفت دماً أبيض، وماتت مهسوري في الحال، لكنها قبل أن تموت دعت الله أن يحرق بيوتهم ويشتت شملهم ويلعن هذه الجزيرة فاستجاب الله دعاءها، ولعنت الجزيرة لسبعة أجيال قادمة وبالفعل هجر الناس هذه الجزيرة لسنوات طويلة، وعندما وعى أهلها الدرس أقاموا ضريحاً للعذراء، «مهسوري» في هذا المكان، لتصبح «مهسوري» من أروع الجزر المأهولة في العالم.

-٣-

نال منا التعب وقررنا العودة على أن نستكمل الرحلة في اليوم التالي، عندما وصلت إلى الفندق كنت في غاية الإرهاق، قررت أن آخذ حماما دافئا وأدخل فوراً إلى السرير وأنام.. لكن يبدو أنه لا أمل في الوصول إلى النوم الليلة، فقد علت رنات تليفون الحجرة بالفندق وأتاني صوت حنون دافئ يقطر عذوبة ورقة، عرفت فيه على الفور صوت «ماهيتاب»:

-آسفة للإزعاج.

- لا عليك.

-هل ستنام الآن؟

- بالفعل أنا في السرير أحاول النوم.

ضحكت وقالت:

هل أنت من النوع الذي يشرب اللبن مبكراً قبل أن ينام؟.

أجبتها:

-لا .. ليس في كل الأوقات.

-هل أتيت إلى ماليزيا لتنام، من يستطيع أن يقاوم هذا السحر والجمال الماليزي الذي يزداد تألقه ليلاً لقد اتفق الجميع على قضاء الليل على ضفاف نهر المنكروف. سننتظرك في الاستقبال خلال عشر دقائق.

تخيرت مقعدي طوال الطريق بجوار «ماهيتاب»، واكتشفت أنها فتاة تملك من المواهب ما تأسر به لبك، حديثها عذب للغاية، لاتشعر معها بالوقت.

استمتعنا بليل ممتع على ضفاف نهر المنكروف، ونسمات الهواء العليل وصحبة رائعة جعلت الليل يولي سريعاً، تحدثنا في أمور شتى راحت تحدثني عن الحب بلغة شاعرية رقيقة عندما سألتها:

- «ماهي» كيف ترين الحب؟

صمتت قليلاً ثم أردفت:

– الحب كالفن كلاهما يسبح في الخيال، والمحب يشبه الفنان، فكما أن الفنان يتبرم بشقاء الدنيا ويأبى إلا أن يفر منها ليحقق حلم السعادة والجمال في عمل فني كامل، فكذلك المحب يتبرم بوحشة الدنيا، ويأبى إلا أن يفر منها ليحقق الحب في علاقة سعيدة أو زواج موفق.

رحت أعلق عليها بوجه تعلوه الدهشة:

– لا أصدق أذني، فهذه الرؤية لا تتأتى إلا لفيلسوف خبر الحياة فامتزج بها وامتزجت به.

ضحكت وقالت:

– ومن يدريك فأنا والحياة أخذنا وقتاً كبيراً لنفهم بعضنا البعض.

– أراك تتحدثين كربات الحكمة الإغريقية.

جلجلت ضحكتها وقالت:

– أنا مجرد فنانة وبداخل الفنان إنسان فالحب الحقيقي والفن كلاهما رغبة إنسانية عميقة.

– بالفعل يا «ماهي» نحن ننزع إلى إبداع يسمو فوق المشاعر، وهذه الرغبة مستقرة في نفس الجاهل والمتعلم والغني والفقير على السواء، لذلك يمكننا أن نقول إن بذرتها راسخة في تربيتنا البشرية وفي كل واحد منا تكمن روح عاشق وشخصية فنان.

شعرت من حديثي مع «ماهيتاب» أنها على قدر وضوحها وصراحتها تبدو غامضة بعض الشيء كانت عيناها تتلألأان ببريق غريب فبدت كدنانير الفضة تخطف الأبصار كمن ينظر إلى نهر يجري داخل الشمس.

تبرم البعض من تسلل البرودة إلى أطرافهم وأبدوا رغبتهم في الانصراف حتى يستعدوا لرحلة اليوم التالي، في هذه اللحظة فقط اكتشفت أننا انفصلنا تماماً عن الجميع ولم نشعر بوجودهم حتى البرد الذي شعروا به لم يعرف الطريق إلينا .. لقد لفنا شعور بالدفء والألفة لم أشعر بهما من قبل. وكأننا تعارفنا منذ زمن بعيد ولم أجد بداً من الانصياع لرأي الجميع والعودة إلى الفندق.

لا أدري لماذا اقتحمت عينا «ماهيتاب» يقظتي ومنامي فلم تفارقني لحظة واحدة، هذه الفتاة لها تأثير كبير عليَّ منذ رأيتها في الطائرة، هي من الشخصيات التي تقتحمك ملامحها دون سابقٍ إنذار، هذا الجمال الطبيعي الذي تزيده المساحيق تألقاً وجمالاً وكأنها تضع علامة تعجب واستفهام حول كل معلم من معالمها، فمن يستطيع أن يقف صامتاً أمام هذا الجمال.

ومن بوسعه الصمود بالقرب من وهج الشمس..

انتابني شعور غريب لم يصادفني من قبل، شعور بالسعادة والحزن بالأمان والخوف وكأن كل الأضداد اجتمعت في هذا الكائن الذي هو أنا .. لم أدر سر جرأتي وحديثي الدائم إلى ماهيتاب طوال اليوم، من المؤكد أن الجميع قد لاحظ اندفاعي وراءها ومرافقتي الدائمة لها.

انتابني شعور بالخجل بعد الجرأة وأدركت أنه ينبغي عليّ أن أتروى وأكبح زمام ذلك الفرس الجامح بكل قوته خلف تلك الظبية الشاردة. لم أعتد اللهاث وراء قلبي فقد كان العقل بالنسبة لي هو العِنان الذي يقود قلبي الجموح..

استيقظنا مبكراً وانطلقنا بحيوية رغم أننا لم ننم كثيراً، فقد عدنا متأخرين من نزهتنا على مياه نهر المنكروف، لنكمل رحلتنا إلى قرية «أير هنكات» بنافورة مياهها الدافئة ذات الثلاثة طوابق، والتي تبعد أربعة عشر كيلو من «كواه»، و محلات التحف التذكارية.

أصر الشقيقان «مايكل وبيتر» ولدا «جوزيف» و «جانيت» على الذهاب إلى حديقة التماسيح التي تبعد اثنين وثلاثين كيلو من بلدة «كواه»، وتحتوي على أكثر من ألف تمساح، يبدو المنظر خيالياً، ولا يمكن أن تشاهده في أي مكان في العالم سوى في حديقة التماسيح بماليزيا .

التقط «مايكل» «وبيتر» و«داليا» صوراً تذكارية كثيرة بمزرعة التماسيح، وهي تلعب وتؤدي عروضاً شيقة بواسطة مدربها، فهذا التمساح العملاق الذي يزيد وزنه على أكثر من طنين، وبعض التماسيح الصغيرة وهي تستلقي على ظهرها لشدة الحر.

شلالات العيون السبعة تقع شمال غرب جزيرة مهسوري، تعد من أعاجيب الطبيعية فالمياه فيها مقسمة إلى سبعة أحواض طبيعية، تحيط بهذه العيون غابة خضراء مورقة، مما يضفي عليها لمسة من سحر الطبيعة وجاذبيتها، وتذكر الأساطير أن الجنيات الجميلات كن يسبحن ويمرحن في هذه العيون.

رحنا نتأمل الطبيعة التي تشكل الجبال في أحد جوانب هذه البحيرة امرأة حبلى مستلقية على ظهرها بشكل ظاهر يدعو للتأمل عندما تخاطب الطبيعة البشر والكائنات ترتجل لغة مستوحاة من قاموس الوجود، وقد ساهم هذا الفن الارتجالي في إرجاع تسمية البحيرة والجزيرة إلى أسطورة الأميرة الجنية التي تزوجت أحد أمراء الإنس، ثم مات طفلها بعد ولادته بقليل فحزنت علية الجنية ودفنته في مياه البحر البلورية، فصارت كل امرأة عاقر تسبح في البحيرة لتمنحها طفلاً. ومن المضحك أن البحيرة مليئة بنساء سابحات منهن من تجيد الغوص، وكثيرات منهن لا يُجِدْنَه، لكن الجميع أصررن على التبرك بمياه البحيرة، وقد رفعن أكفَهن للسماء تتمنين أن تتحقق المعجزة ويرزقن بأطفال.

قررت أن أنفذ قراري الذي اتخذته بالأمس بيني وبين نفسي وهو الابتعاد عن ماهيتاب قدر الإمكان، وكنت من حين لآخر أختلس النظر «إليها» حتى لا تلمح اهتمامي الزائد بها، ولحسن الحظ أن ابتعادي المتعمد عنها دفعني للاقتراب أكثر من عائلة دكتور «جوزيف» وزوجته «جانيت» واندمجت معهما وظللت ألاعب «بيتر ومايكل» طوال الرحلة. لم تكن دكتورة «جانيت» بالشخصية الحادة الجامدة لكنها كانت ودودة غيرت فكرتي عن الأطباء الذين غالباً ما تجدهم عابسين جادين في أحاديثهم، وحركاتهم محسوبة، أما «جانيت» فكانت منطلقة تتمتع بطفولة «مايكل وبيتر» بل تشاركهما طفولتهما، كانت طفلة أكثر من الأطفال. حتى إننا أجرينا مسابقة في الجري، وكانت «جانيت» أولى المتقدمات. وراحت تحثهم على الاشتراك في المسابقة وتعدد لهن فوائد

الرياضة والرشاقة، وللحق فهي رشيقة إلى حد كبير لايظهر عليها سنها، برغم أنها تعدت الخامسة والأربعين لكنها تبدو أقل من ذلك بكثير فالحب والمرح شعارها في الحياة.

أسرتني «جانيت» عندما سمعتها تحادث «جمانة سيف» والدة داليا وهي سيدة لا تقل مرحا وانطلاقا عن جانيت:

- الحب هو شريان الحياة.. فالمحب معماري صبور، يجعل من خلال بنائه اللامفهوم مفهوماً. والابتسامة التي تطل من بين الدموع هي الابتسامة التي تستحق مديح الدنيا. فلا شيء يستحق السعي سوى الضحكات ومحبة الأصدقاء التي تسطع كضوء الشمس فهي المنبع الرئيسي لوجودي الهادئ المرح ومقياس الصداقة الوحيد هو الذكريات والضحكات والسلام والحب.

وجدت نفسي أتدخل في الحوار دون أن أدري، وقد فجر اقترابي من «جانيت» وأسرتها رد فعل غريب من «ماهيتاب» فقد تعمدت الابتعاد عنها طوال اليوم وعدم توجيه أي حديث إليها مما جعلها تتصرف بشكل مبالغ فيه مع الجميع، وقد لاحظ دكتور «بسام» ذلك فغمز لي بعينيه وهو يهمس في أذني:

- احذر يا صديقي.. «ماهي» تحاول استثارة غيرتك.

فقلت له كمن يبعد اتهاماً يوجه إليه:

- ماذا تقصد يادكتور؟

– لست أنا فقط الذي ألاحظ يا محمود بل إننا جميعاً نلاحظ أن شيئاً ما بينك وبين «ماهيتاب» وهذا الأمر لا غبار عليه، فالحب أمر قدري لا نملكه وليست لنا فيه حيلة، فأنت لك مطلق الحرية فيمن تحب ولكن أمورالحب والزواج يجب على المرء أن يتروى فيها .

أمعنت التفكير في كلمات دكتور «بسام» فربما كان يقصد من التروي البعاد عن «ماهيتاب» ولم يكن الوقت مناسباً للحديث معه بهذا الشأن.

استمتعت بيوم رائع لولا ما حدث عند العودة. كنا نغني ونرقص وفجأة وجدنا «جانيتً» تصرخ صراخاً مدوياً، التفتنا إليها لنجدها قد اشتعلت فيها النيران وأحاطت بها هالة زرقاء، التفت حولها من كل جانب، ظلت «جانيت» تصرخ وحولها ولداها مايكل وبيتر وزوجها «جوزيف» يستغيثون لإنقاذ «جانيت».

رحنا نغترف من مياه البحر لإطفاء النيران التي اشتعلت فجأة ودون سابق إنذار والنار تتصاعد ومعها يتصاعد الصراخ، إلى عنان السماء ولا مجيب لصرخاتنا، ولا جدوى من ماء البحر الذي لا يستجيب له الحريق.. ولا يستجيب هو لصرخات «جانيت» المسكينة فلقد كنا في عرض البحر، الدهشة تعقد ألسنتنا.. أسئلة كثيرة تقتحم دهشتنا وذهولنا من أين جاءت النيران ولم يشعلها أحد، ولم يكن هناك أية مادة قابلة للاشتعال أو حتى تساعد عليه. حاولنا إنقاذ «جانيت» لكن النار كانت أقوى منا جميعاً، التهمتها في دقائق وكأنها وحش جائع يشتاق إلى فريسة شهية وقد نال مأربه.

عندما وصلنا إلى الشاطئ، كانت النار قد أتت على «جانيت» دون أن يتبقى منها شيء سوى فستانها الحريري الذي كانت ترتديه، وجزء من قدمها وحذائها، شعرنا بالرعب الشديد، كيف تلاشى جسد «جانيت» في دقائق ولم يبل فستانها، انصهر جسدها كله كشمعة احترقت دون دليل على وجودها، حتى العظام تلاشت وتبخرت، ولم يبقَ منها شيء، ومن الغريب أَن النار لم تنتقل إلينا بالرغم من أننا كنا جوارها، حتى ولداها «مايكل وبيتر» الملتصقان بها لم يتأثَرا بالحريق، ولم تمس النار المكان الذي كانت تجلس فيه، حتى المغرفة الخشبية التي كانت تمسك بها لم تصب بسوء، تناثر الطعام هنا وهناك على بعد سنتميترات من جانيت. أصيبت السيدات بحالة هيستيرية من الصراخ والعويل المستمرين، وفوجئت بماهيتاب تسقط على الأرض فاقدة الوعي، كنا في حالة لا نحسد عليها، أصعب موقف واجهناه في حياتنا جميعاً.

اتصل دكتور «بسام» بعربة الإسعاف لتكون في انتظارنا عندما نصل إلى الشاطئ، وحاول سائق الباخرة أن يسيطر على أعصابه المتوترة، وأطرافه المرتجفة حتى وصلنا إلى الشاطئ في حال من الانهيار التام.

كان كل همي أن أبحث عن عربة الإسعاف التي وجدتها في انتظارنا لكي أنقل فيها ماهيتاب.. فوجئنا على الشاطئ بحشد كبير من الصحفيين وكاميرات التليفزيون راحوا يتسابقون لنقل هذا الحادث الأليم، إلا أن قوات الشرطة حالت بيننا وبينهم حتى تتم المعاينة ويدلي الخبراء بدلوهم.

ظللنا ساعات طويلة في استجواب دائم عن ظروف وملابسات الحادث، وماذا شاهدنا وهل اشتعلت النيران بفعل فاعل عن طريق سيجار أو غيره، كان من الصعب بل من المستحيل إقناعهم أنه لم يكن هناك أي مصدر من مصادر النار، وفي النهاية انتهت التحقيقات لكنهم أخبرونا أنه سيتم استدعاؤنا مرة أخرى إذا احتاج الأمر لشهادتنا.

لم نستطع الإفلات من قبضة القنوات التلفزيونية، التي راحت تتلقفنا الواحد تلو الآخر، لتعرف المزيد عن هذا الحادث. ومما أثار انتباهي سؤال طرحته علينا المذيعة:

- لماذا لم يحترق سوى الدكتورة «جانيت»؟

لم أستطع أن أجيب عليها وهززت رأسي وأنا أفكر ترى لماذا هي بالذات؟

ما إن أنهى الدكتور «بسام» لقاءه حتى فوجئ بي أبادره بنفس الأسئلة التي طرحت علينا، فنظر إليّ ولم يجب إلا بتلك الإيماءة التي أصدرتها رؤوسنا دون اتفاق وقد أسقط في أيدينا.

تحول اليوم الأسطوري إلى عزاء.. فقد اختفت جانيت من بيننا إلى الأبد.. كيف يمكننا أن ننسى ما رأيناه، وقد تحولت جانيت أمامنا إلى كرة نار ملتهبة.. شمس أشرقت فغابت دون أي سبب ظاهر لدينا، ولا يمكَننا إنقاذها لقد كانت تتفجر منذ دقائق بالحيوية والنشاط وتلقي النكات وتوزع الضحكات، ثم صمت وسكون ورماد، كم هو قاسٍ أن تقف عاجزاً أمام إنسان يفقد حياته بين يديك ولا تستطيع أن تفعل شيئاً حتى مجرد درء الخطر عنه.

خيم الحزن والتعاسة على دكتور «جوزيف»، الزوج الملتاع وسيطر الهلع على ولديه، وقد تحجرت الدموع في مقلتيهما، ونظرة مشدوهة يملؤها الخوف والرعب من كل شيء حلت مشاعر الألم والحسرة محل الفرحة التي كانت تملأ قلوبنا ونحن نستمتع برفقة «جانيت». وعدنا لا ندري أنعزي دكتور «جوزيف» أم نعزي أنفسنا على موت «جانيت» المفاجئ.

يستيقظ «دكتور «جوزيف» كل مساء، على صرخاتِ ولديه «مايكل»و «بيتر» ويظل طوال الليل يهدئ من روعهما دون جدوَى، حتى اضطر للذهاب بهما إلى طبيب نفسي لكي يتابع حالتيهما فالحادث بلا شك أليم ولا يمكن أن يمحى من الذاكرة.

لا أستطيع أن أنسى أن أسرة «جانيت» كانت معي في الرحلة ٥٣٩، ويبدو منذ الوهلة الأولى أن إحساسي كان صادقاً بخصوص تلك الرحلة العجيبة، وكأن هناك لعنة ستحط فوق الرؤوس.

من واقعِ مهنتي كصحفي، لم أكن أستطيع أن أقاوم رغبة البحث والاطلاع والَتقصي في هذه الظاهرة الغريبة، وكيف تناولتها الصحف على أنه حريق غامض. راح البعض يؤكد أن هناك حوادث مشابهة لما حدث لجانيت جرت في أماكن مختلفة، اندلعت النيران من أجساد الضحايا دون سابق إنذار ولم يعرف أحد حتى الآن سر هذا الاحتراق. حيث انطلقت من مكان إلى آخر، سعياً وراء الخبر كي أعرفَ المزيد،

وأطلق بعض الصحفيين أن هذه الظاهرة، تحدث للسيدات دون الرجال بلا سبب واضح، مما ضاعف من قلق السيدات وخوفهن، ولم يستطعْ دكتور «بسام» أن يمر على الحادث كما مر بغيره، إلا أنه لا يملك دليلاً على اشتعالِ النيران مرة واحدة، دون وجود أي مادة تساعد على الاشتعال.

حاولت أن أستفسر عن بعض ما التبسَ عليّ من الدكتور «بسام» عن الوقت الكافي لانصهار الجسد البشري فراح يداعب خصلة تدلت على جبينه وهو يقول:

- ربما تندهش عندما تعرف أن عظامَ الإنسان تحتاج حوالي أربع آلاف درجة مئوية، حتى تنصهر في مدة لا تقل عن اثنتي عشرة ساعة متواصلة، وبالرغم من ذلك لا ينصهر العظم عن آخره.

عقدت لساني الدهشة ولم أجد ما أعقب به عليه، فما حدث فوق احتمالات عقول البشر أن ينصهر الجسد البشري بعظامه، ويتحول إلى رماد في دقائق معدودة، شيء يفوق الوصف والخيال معاً. عادت تراودني نفس التساؤلات السابقة عن لعنة الرحلة، أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي ولا أجد لها جواباً.

كان من الصعب على العالم «بسام»، أن يقف عاجزاً عن تفسير ما حدث «لجانيت»، وراح يبحث في كل الأسباب التي يمكن أن تكون لها علاقة بالحريق، ويسجل كل الحوادث المشابهة، من قريب أو بعيد لعله يصل إلى شيء، لكن للأسف لم يصل إلى نتيجة..

أثناء عودتي إلى الفندق حيث كان من المقرر لي الاتصال بإحدى

وكالات الأنباء لكي أبلغهم بتفاصيل الحادث أبلغني موظف الاستقبال بالفندق أن شخصاً جاء وترك رسالة لي عندما فتحت الرسالة وشرعت في قراءتها انتفض قلبي، فالرسالة عبارة عن تحذير لي بعدم الاهتمام بهذا الحادث، وفي نهاية الرسالة تهديد بالقتل إذا قمت بإرسال أية معلومات حول الحادث إلى أية جهة، أسرعت إلى غرفة الدكتور «بسام»، ولدهشتي وجدته يخبرني بأنه تلقى تهديداً مماثلاً، ثم بادرني قائلاً:

- من له المصلحة بعدم البحث في هذا الموضوع؟

لم يكن سؤاله مباغتاً لي، فلقد فركت رأسي فركاً، وقلّبت كل الأمور على جميع أوجهها ورحت أجيبه سريعاً:

- لعله أحد الصحفيين يعمل بوكالة منافسة طاش به خياله وأراد أن يبادر بنشر الخبر قبل وكالتنا.

بينما راح الدكتور «بسام الشندويلي» يقول و قد شرد بذهنه بعيداً:

- عندما يتعلق الموضوع بالعالم «بسام الشندويلي»، وبهذا الحادث خاصة سيكون هناك العديد من الخطوط الحمراء والمسارات الغامضة الملتوية التي يجب أن نضعها نصب أعيننا، لأننا سنسلكها رغماً عنا.

❖❖❖

ذهبت أنا والدكتور «بسام» إلى المستشفى للاطمئنان على «ماهيتاب»، وقد طمأننا الطبيب المتابع لها أن حالتها قد استقرت الآن، عندما دخلنا غرفتها لفت نظري وجود رجلين ارتبت فيهما ولم أكن قد رأيتهما من قبل، اصطدم بي أحدهما ثم أسرع الخطى.. لم أعط للأمر كثيراً من الاهتمام، وجدت «ماهيتاب» شاحبة ذابلة مضطربة بالرغم من أنها وضعت بعض لمسات من مساحيق التجميل إلا أنها لم تستطع أن تخفي آثار الصدمة على وجهها فقد غاضت الدماء من وجنتيها، وظهرت هالات سوداء تحت عينيها، حتى ذلك البريق الذي كان يتألق في مقلتيها اختفى وحل محله إحساس بالخوف والرهبة من المجهول، فلقد افتقدت شيئاً ما في حدقتيها.

دخل الدكتور «بسام» محيياً الجميع وقال لها:

– لقد تحسنت كثيراً عن ذي قبل، يجب أن تكوني قوية أمام المواقف الصعبة.

أجابته:

– أصعب موقف واجهته في حياتي يا دكتور «بسام»..

تحدثت بصوت تتحشرج فيه الكلمات غطت وجهها بكفيها وانفجرت باكية.. فقلت لها:

– لا داع للبكاء وكلنا حولك فلم الخوف؟

أجابتني من بين دموعها:

– لقد كانت «جانيت» الشرارة التي انطلقت في وجوهنا، وسوف تصيبنا حتماً، ما يحز في نفسي أننا كنا جميعاً حول «جانيت» ولم نفعل لها شيئاً، أخشى الموت محترقة بين لحظة وأخرى.

ألقمتني الصمت بكلماتها وحرت ماذا أقول لها، شعرت بضعفها وقلة حيلتها:

وقلت لها:

– لا تظني أن الجميع سيظل يفكر فيما حدث فالحياة مستمرة، ولكل أجل كتاب، وأنت ما زلت شابة وجميلة تتألق في عينيك وعلى شفتيك وفوق جبينك شمس الشروق اللدنة الناعمة، وكلما عصفت بك الحياة بأنوائها وأعاصيرها العاتية، فما عليك إلا أن تنظري إلى أفق الشروق فقد يكون أكثر جمالاً وجاذبية من شفق الغروب.

ابتسمت ومسحت دموعها وقالت:

– يبدو أنك متفائل إلى حد بعيد يا أستاذ محمود وأنا في أشد الاحتياج لجرعة كبيرة من التفاؤل ويد تمنحني الأمل.

– سأمنحك جرعة من التفاؤل، على طبق من ذهب.

قالت لي:

– أنت قدري يا أستاذ محمود.

أجبتها:

- بالفعل.. فأمورنا معلقة في السماء وليست بيد أحد منا .

هزت رأسها في صمت وهدأت قسمات وجهها، وشعرت أن كلماتي قد ألهمتها بعض الأمان الذي تحتاج إليه. تعجبت من نفسي كيف أمنحها الأمان وأشعر بالخوف، ولا أستطيع إنكار مشاعري، وحالة الانهيار التي أصابتنا جميعاً يوم ماتت «جانيت» محترقة بيننا، ولم نستطع أن نفعل لها شيئاً، يومها كنت في حالة من الإعياء والضعف لم أشعر بهما في حياتي.

استأذن «بسام» لأن لديه موعداً مهماً، وهممت بالانصراف أنا الآخر، لكني لمحت نظرة استعطاف في عينيها تتمسك بوجودي بجانبها، فتعللتُ أن لدي موعداً قرب المستشفى وسأجلس مع «ماهيتاب» حتى يحين الموعد. نظرت لي «ماهيتاب» وقالت:

- لو لم تبق معي لطلبت منك ذلك.

- شعرت أنك بحاجة للحديث.

- يعجبني فيك أنك فنان تحب الحياة وتقدر المشاعر، لكني لا أريد التحدث مع أحد سواك أريد التحدث إليك فحسب.

- أروع ما في الحب هو أنه قصيدة لا ندرك بدايتها ولا نهايتها، فهي تلهب دفعة واحدة كل قوى الإنسان، فالمحب يفكر في محبوبه بعقله، ويطلب الاندماج فيه بجسده. فقوى العقل والقلب والحس تشترك جميعاً في إبداع قصيدة الحياة، أما أنا فشطر في بيت من تلك القصيدة يبحث عن شطره الآخر.

خفضت رأسها وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها فازدادت تألقاً وأجابتني:

- أتمنى أن تجد شطرك الثاني لتكمل البيت الذي تنشده.

تناولت يدها في يدي وقلت لها:

- أشعر أني وجدت شطري الثاني.. قصيدتي على وشك أن تكتمل. فرحيل جانيت المفاجئ يدفعنا إلى أن نكون أكثر قربا..

- أبهذه السرعة؟

- لم يعد هناك وقت.. فلحظة واحدة بلا حب هي التعاسة ذاتها..

راح وجهها يشع حيوية ونضارة وتوسطت وجهها ابتسامة أكبر من حدود العالم.. نظرت إلى جيدها الأسطواني فوجدت سلسلة رقيقة يتوسطها حجر نادر في لون زرقة عينيها الصافيتين، التي تشبه لون اللازورد وربما منحت السماء لونها من زرقة عينيها، ترتدي في معصمها خاتماً يحمل نفس الفص الأزرق، تشعر أنها كالنهر الهادئ، ولكنك ما إن تقترب منها وتنظر في عينيها تشعر أنك لا تجيد العوم في بحر هائج، وتحتاج لربان ماهر يستطيع أن يوجه دفة السفينة، ويتفادى في إبحاره الأمواج العالية الهائجة، حتى يروضها ويملك زمامها، فمن يدري بالأعماق سوى خالق الأعماق، ومن يستطيع تحمل ظلمتها والإبحار فيها. غير شخص ألف الظلمة وخبر البحر..

لا أدري ما الذي أصابني لمجرد رؤيتي لعينيها كأن لهما قدرة عجيبة على بث شعاع تغلغل داخل كياني، ربما قدرة الفص الأزرق الذي يمثل الحكمة على تهدئة النفس ورياضتها .. فاللازورد يثير العقل بدلاً من العواطف، يقال إن الحجر المتمم لمن يعشقون اللازورد هو العقيق الأزرق الذي يساعد العقل المرهق على الاسترخاء.

نسيت يدها في يدي وشعرت هي بذلك فسحبتها على الفور. عرضت عليها أن أصطحبها في نزهة بين ربوع مهسوري، فوافقت على الفور مرحبة وقالت لي:

- بالفعل كم أنا بحاجة إلى مثل هذه النزهة بعدما تعرضت له في الأيام الماضية من ضغوط عصبية..

سكتت قليلا ثم قالت:

ليتك تأخذني إلى مقام «مهسوري» أشعر بالرغبة الشديدة إلى أن أكون بجوارها .. يبدو أن شيئا ما يربطني بمهسوري.

❖❖❖

ولدت يتيمة الوالدين، وحيدة في هذا العالم المترامي الأطراف، تشعر بالحزن الدفين والغموض في نظراتها ربما هذا الشيء يجرك جراً وراءها لتكتشف أسرار العيون الزرقاء، لجأت للرقص لتعول نفسها بعدما تخلى عنها الأهل والأصدقاء، ونهب الأعمام ميراثها فأصبح الرقص حياتها وشريكها الذي تبذل كل جهدها من أجله،

وأنها قد تعرضت لمشاكل عديدة طيلة حياتها، فقد وجدت نفسي أتغلغل داخلها رغماً عني، وما أدهشني أنها لم تمانع، بل فتحت لي الباب على مصراعيه، مما شجعني أن أعرف عنها كل شيء.

وجدت نفسي أنا أيضا أبوح لها بسيرتي منذ لحظة ولادتي:

– هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها كل شيء عن إنسان في سويعات قلائل.

أجابتني على الفور:

– لا أخفي عليك أنا أيضاً، فلقد شعرت نفس الشعور عندما رأيتك.

– أشعر أن قوة خفية تربطني بك، ولا أملك أمامها سوى الخضوع طوعا وكرها..

ابتسمت بدلال وقالت:

–لا أظن ذلك أبداً، أنت موهوب في أشياء كثيرة منذ ركبنا الطائرة وأنا ألمح مواهبك.

ابتسمت وقلت لها : أشعر أن هناك قوة خفية تربطني بك.

– هل يمكنني سؤالك عن حكايتك مع الحجر الأزرق؟

– بالطبع.. لكني لا أعرف عن نفسي الكثير.. فأنا أحبه وفقط منذ ولدت وأنا أحتفظ به، ولا أستطيع أن أعيش بدونه، لقد لفت نظري الآن لشيء هام هو أنني لا أقتني إلا الحجر الأزرق.

- هل تعرفين أنه حجر سهل الخدش، خفيف الوزن، ضعيف جداً، وتتخلله كسور محارية.

راحت تستطرد:

- نعم غير أنه معرض للإصابة بالشروخ لأن بعض خاماته شديدة المسامية فهو يشبهني تماماً، وهذا ما يجعلني أبتعد كثيراً عن الآخرين.

- ولكن يمكنك المحافظة على شكل الحجر عبر طبعه على مادة الراتينج الصمغية أو على الشمع، فهو ذو قيمة عالية مميزة من بين المجوهرات.

راحت تنظر لي بدهشة وإعجاب شديدين وهي تقول:

- ومن يضمن لي أن أحافظ على نفسي، ولايوجد راتنج صمغي يحافظ على من الخدوش والكسور فأنا شديدة الحساسية وأعشق هذا الحجر المسامي.

رفعت عينيها الزرقاوين ثم ردت بابتسامة أشبه بابتسامة الموناليزا:

- إلى هذا الحد أنت خبير بالأحجار الكريمة؟

ضحكت وأنا انظر في عينيها وقلت لها:

- عيناك علمتني فن الجوهر.. فهما أجمل من اللازورد، وبريقهما أشد لمعانا من الماس.

غضت طرفها وابتسمت في خجل:

– أنت جريء إلى هذا الحد؟

– لقد اكتسبت الجرأة من توهج عينيك.

سكت قليلا ثم أردفت:

– أتمنى ألا تكوني ممن يحبسون عواطفهم عن الغير، خشية أن يقبل عليهم بعواطفه.. فهؤلاء الناس لا يمكن أن يعرفوا السعادة.. فالسعادة في خصوبة التبادل لا في عقم الاكتفاء.

أجابتني:

– ليس الأمر كما تراه من وجهة نظرك، لكنني لم أعتد أن أفتح قلبي على مصراعيه، إني قد عاهدته أن أترك له هذه المسألة كاملة ليقرر شريك حياته بمحض إرادته دون تدخل في أموره.

قلت:

– وأنا أيضا عاهدت قلبي على نفس العهد.

مدت يدها إليّ:

– إذن اتفقنا.

-٥-

كنت سعيداً باعترافي «لماهيتاب»، فلقد شعرت منذ رأيتها في الطائرة أن هناك شيئاً ما ربما ينشأ بيننا، أحسست أني أريد التحدث مع «بسام» حاولت الاتصال به دون جدوى أعدت محاولة الاتصال به كثيراً وفي كل مرة تأتيني رسالة مسجلة بأن هذا الرقم غير متاح الآن، راودني الشك والخوف عليه فلم يتعود على التأخير خارج الفندق حتى تلك الساعة من الليل، اتصلت «بماهيتاب» حتى أرجئ الموعد للغد.

ذهبت للفندق.. وإذا بي أجد هرجاً ومرجاً في صالة الاستقبال وحشداً من رجال الشرطة انتابني الذعر وعلى الفور تخيلت موقفاً تكرر في كل الأيام الماضية منذ وطئت قدمي أرض مهسوري واختنقت الآهات في حلقي بل ازدادت دموعي.. ترى هل حدث مكروه للدكتور «بسام»، ألن أراه ثانية؟

حاولت اختراق الحشد في بهو الفندق ودقات قلبي تعلو على الأصوات جميعاً، ولم يهدئ من تلك الثورة بداخلي إلا بعض كلمات تسربت إلى أذني التقطها .. عرفت فيها صوته:

- هل تستطيع يا دكتور «بسام» وصف الرجال الذين قاموا بالاعتداء عليك؟

حمدت الله وفرقت الجمع لأصل إليه لأجد رأسه قد ضمدت بعصابة وبعض الخدوش بوجهه وتمزق حلته. وراح الدكتور «بسام» يقول:

- كنت عائداً لتوي من الخارج بعد يوم عمل شاق، وما إن أدرت مفتاح الحجرة في ثقب الباب سمعت صوتاً بالداخل، وحركة غيرعادية هممت بالتراجع إلى الوراء عائداً للاستعانة بأفراد الأمن بالفندق إلا أن أحدهم عاجلني بضربة قوية على رأسي بآلة حادة كانت في يده فقدت على أثرها الوعي وعندما أفقت اكتشفت اختفاء حقيبتي وجوالي.

توجه له الضابط:

- هل هذه حقيبتك؟

تعرف عليها في الحال وأجاب وهو يتفحص أوراقه:

- أجل هي.. ولكن كيف تم إنقاذ الحقيبة من أيديهم؟

تقدم أحد أفراد الحراسة بالفندق:

- لقد كنت أمر بالطابق الذي به غرفة الدكتور بسام عندما أبلغني موظف الاستقبال أن هناك شخصين صعدا إلى غرفته.. عندما صعدت وجدت الدكتور «بسام» مقبلاً نحوي حاولت أن أخبره بأمر هذين الرجلين اللذين ينتظرانه وقد كان الشك قد ساورني نحوهما وفي ثوان وجدتهما يصيبانه ويخطفان الحقيبة ولكني أطلقت صفارات الإنذار بالفندق ففرا هاربين.

تحسس الدكتور «بسام» الجرح الذي في رأسه وقال له:

- أشكركم جميعاً.

ثم توجه للضابط واستأذنه في الصعود إلى غرفته لكي يستريح بعد ما حدث اليوم. صعدت مع الدكتور «بسام» وصعد معنا بعض رجال الأمن ليرابطوا أمام غرفته حتى الصباح وتم تشديد الرقابة والأمن على مدخل الفندق.

لم أنم تلك الليلة كنت أخشى أن يتكرر معي ما حدث للدكتور «بسام» علاوة على ذلك فقد تم تدمير جهاز الكمبيوتر الخاص به أكثر من مرة وتعرض لاختراق لكنه يؤكد لي دائماً أن أبحاثه في مأمنٍ بعيدا عن أيدي العابثين. إن كانوا قد وصلوا للدكتور «بسام» فحتماً سيحاولون معي، خصوصاً أن التهديد كان مباشراً لكل منا، أدركت أنه لا مجال إلى النوم إلا بالأقراص المنومة.

في الصباح اتصلت بالدكتور «بسام» لأطمئن عليه ودعاني لغرفته، أخذ يعيد على مسامعي ما حدث معه البارحة.. طلبت منه أن يشرح لي أكثر عن أبحاثه وأهميتها ولماذا يطاردوننا. حاولت فهم كلمات دكتور «بسام» لكني شعرت أن حديثه يحمل من الغموض أكثر من التصريح، وراح يكمل كلامه دون أن يلحظ شرودي كانت شفتا «بسام الشندويلي» تتحركان دون أن أسمعهما، بينما عقلي يستحضر الأحداث ذاتها وكأنني كنت في موقعةٍ حربيةٍ:

– أنت تعلم يا محمود أنني أعمل في مجال نادر، ولي اهتمامات بالقنبلة النووية، عمرها أكثر من عشرين سنة من العمل والكفاح المتواصل، ولقد وصلت عبر أبحاث عديدة أن الرماد المتخلف من تلك الأجساد الآدمية، يمكن أن يستخدم في صنع قنابل من نوع خاص،

يستخدم فيها رماد بشري، يكون هو الوقود ولن تكون ساعتها مضرة بالبيئة، بل إنها ستعود بالنفع على سكان الأرض.. كم أنا مشتاق أن يكتمل هذا البحث ويخرج للنور، حتماً سيغير من وضع بلادنا كثيراً، وسيعملون لنا ساعتها ألف حساب.

كانت دهشتي بهذا البحث الجديد تفوق كل شيء إلا أنني قلت له:

– كيف ستفتك بالإنسان من أجله، هذه معادلة صعبة لا يمكنني فهمها، إنك تذكرني بالعالم «أوبنهايمر» الذي قام باختراع القنبلة النووية وبعد أن صنعها ندم على صنعها وقرر منح جائزة تحمل اسمه.. أنشكره على جائزته أم نلعن اختراعه ومازالت مأساة هيروشيما ونجازاكي عالقة بأذهاننا حتى اليوم.

أطرق الدكتور «بسام» وهو يردد:

– تتحدث وكأنني أنا الذي أقوم بحرق تلك الأجساد، أنا يا صديقي أستفيد من وجودها محترقة بالفعل، ألملم رمادها المتناثر بدلاً من بعثرته في الهواء دون فائدة، ستستخدم في أغراض الحرب، وبعدها ستكمل دورتها في الحياة فستستفيد منها الأرض في التخصيب، خصوصاً أنه قد ثبت من خلال الأبحاث التي قمت بها بعد تحليل كل من الرماد المتخلف عن اللبن وجسد الانسان المحترق، أن العناصر المعدنية في اللبن هي نفس العناصر الموجودة في رماد جسم الإنسان دون زيادة أو نقصان، والعالم اليوم يعج برماد أجساد البشر المحترقة والتي تذهب هباء وهذا يساعدنا على تصنيع قنابل ذرية دون مقابل، ستغير نتائج هذا البحث وجه الأرض وستصيب تجار الأسلحة في

مقتل، وتحمينا من تهديدات بالنهاية الحتمية التي بتنا ننتظرها في كل هجوم من تلك القوى، والتي نقف أمامها عاجزين نتيجة لعدم توفر الإمكانيات.

عدت أسأله من جديد:

- هل تظن أن هذه القوى ستتركنا ننعم بهذا الاختراع.

أجابني:

- من قال هذا.. إنهم الآن يحاولون الفتك بي، ولن يهدأ لهم بال حتى يحصلوا على سر هذا الاختراع.

رحت أدور حوله وأنا أتساءل:

إنني لم أعد أفهم شيئاً على الإطلاق.. نحزن على موتانا ونذرف الدموع من أجلهم ثم نلملم بقايا أجسادهم ونحولها لرماد نستخدمه في الفتك بالبشر.. اليد التي تضمد الجراح هي نفس اليد التي تطعن بالخنجر وتضغط على الزناد وتحرق وتبيد.. يد تبني ويد تهد.. ندمر العالم ثم نسعى إلى إصلاحه؟

أجاب «بسام»:

- أنا كعالم عليَّ أن أستفيد من كل شيء حولي.

- تستفيد أنت وتخسر البشرية بأسرها.

- بالعكس أنا أفيد البشرية.

– إفادة البشرية بالسلام لا بالحرب، وأنت تسعى لتصنيع قنابل من رماد بشري لتدمير آخرين، ومن ناحية أخرى هل سألت الشخص المحترق إن كان يرضى أن يستخدم جسده في عمل كهذا أم لا؟

أجابني:

– لن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

ضحكت في مرارة:

– ما أتعس إنسان اليوم.. فقد أصبح شاة تذبح وتسلخ إن لمٍ تمت محترقة، يطمع الجميع لا في دمائها فحسب بل في رمادها أيضاً..

راح يربت على كتفي مهدئا:

– هون عليك يا صديقي لا تبك على اللبن المسكوب بقدر سعادتك بما احتفظت به منه..

دفعت يده بعيدا وأنا أصيح بعصبية:

– ألم تفكر في أنه سيسعىٍ أصحاب المصلحة من تجار الأسلحة والتدمير، لحرق البشر جميعاً لتصنيع قنابلهم بأبخس الأثمان، ألا يكفي بيع الأعضاء والإتجار بالبشر، لقد هان الإنسان فصار كفئران التجارب، تارة يبيعونه وأخرى يتاجرون بأعضائه ثم حرقه، ألم يكن من الأفضل أن نفكر كيف نزيد الرقعة الخضراء بين ربوع الأرض، أنت تسعى للفتك بالجنس البشري يا دكتور إنها مؤامرة على بني الإنسان.

أجابني «بسام»:

لكل منا رؤيته ووجهة نظره.. فإذا كان هدفك يا محمود منصباً على المشاعر الإنسانية وحدود الإنسان.. فأنا أتطلع إلى ما هو أكثر من ذلك.. البشرية كلها.. الضعفاء في هذا العالم.. فهم يعدون لك أسلحة من ذرات ونويات وأنا أعد لهم أسلحة من بشر.. أرجو أن تظل صداقتنا كما هي حتى لو اختلفنا في وجهات النظر..

يسكت «بسام» قليلاً ثم يقول:

نستأنف الحديث فيما بعد، فربما تفهم الأمر على حقيقته. اذهب حالاً وتناول كأساً من اليانسون الدافئ وانعم بنوم هادئ، فأنت تحتاج لقسط من الراحة، وأفرغ رأسك من كل شيء.

-٦-

هل يمكن أن يكون كل ما جرى من أحداث مجرد حلم، كوابيس، أضغاث أحلام وقد أوشك أن يستيقظ منها، هل ما زال بمنزله بالقاهرة ولم يتعرف بعد على ما هيتاب وجانيت، هل كل هذه الأفكار كانت مختزنة في عقله وقد حان الوقت لطردها، هل ما زالت جانيت على قيد الحياة وهي تملأ الدنيا بضحكاتها الحلوة وتداعب غلاميها البريئين «بيتر» و «مايكل» وتراقص زوجها المفتون «جوزيف» وتعرض عليه أن يسابقها وتسابقه؟

أجل إنه يسمع صوتها خارج الغرفة.. هاهي تناديه باسمه دون ألقاب كما تعوّد منها:

- محمود هيا بنا نتسابق على شاطئ نهر المنكروف.

لم أصدق ما سمعته.. واندفعت نحو الباب فتحته مسرعا كانت هي بالفعل جانيت بوجهها الصبوح المتلألئ الطفلة الكبيرة صرخت:

- جانيت أنت...

- محمود ما لك تحملق فيّ هكذا الجميع ينتظروننا

وانطلقت بجسدها الرشيق وأنا خلفها مدهوشاً.

كانت جانيت تضحك وترقص وتغني دفعة واحدة، وزوجها يحيطها بذراعيه وولديها بيتر ومايكل ممسكان يديها أما أنا فكنت أنظر إليها كشمس أشرقت لتوها وأخشى أن تغيب، لم أر غيرها حتى ماهيتاب لم تقع عينى عليها مرة واحدة بالرغم من وجودها، رحت أدور حولها بقوة كقمر وقع في أسر نجم قوي فقبض عليه في مداره، لم أدر بقدمي وهما تتحركان بسرعة رهيبة حتى كادتا تنطلقان بي في الفضاء، ولا بالدموع المنسابة من عيني، ولا بالعرق الغزير الذي تصبب على جسدي، ورَشَحَ من ملابسي، ولا الحرارة التي كانت تنبعث مني، ولم أدر لها تفسيراً وكأن خلاياي كلها تتأجج، لتشب ناراً أمسكت بجسدي، رحت أصرخ من شدة الألم والجميع ينظرون لي من هول المفاجأة إلا جانيت التي أسرعت بسكب كميات كبيرة من الماء علي.. لكن النار لم تهدأ ولم تخمد.. ظللت أصرخ بشدة حتى استيقظت من نومي لأجد نفسي على فراشي وداخل حجرتي بالفندق.لم يكن إلا حلماً ومع ذلك ما زال جلدي يتألم من فرط الحريق.

لم يكد يمر أسبوع على رحيل «جانيت»، إلا وقد كان كل شيء ينطق بالحزن، عندما ذهبت إلى الدكتور جوزيف وولديه بيتر وما يكل لأسري عنهم لم أستطع احتمال بؤسهم وحزنهم الشديد بعد اختفاء جانيت وبدلا من أسري عنهم كنت بحاجة لمن يسري عني خصوصاً عندما بكى دكتور «جوزيف» وقال:

- انحنت أشجار الكازورينا العملاقة، بدت أوراقها ذابلة تبكي من كانت ترعاها، أصبحنا أغصانا جرداء سقطت عنها أوراقها الخضراء اليانعة، وباتت في العراء دون مصد. الأطفال الصغار الذين كانوا يترددون على عيادتها، لا يصدقون موتها ويصرون على السؤال عنها بل ينتظرونها ويأبون الرحيل ويرفضون الذهاب لأي طبيب آخر حتى تأتي وتداويهم من جديد.

ربت على كتفه، وشددت على يديه قائلاً:

- لو كان بأيدينا أن نحتفظ بمن نحب إلى الأبد، ما استمرت الحياة، فالحياة تفرض علينا أشياء رغم إرادتنا وما علينا إلا التسليم والرضوخ طواعية.

راح يردد في أسى وهو يهز رأسه:

- هكذا هي الحياة على قدر ما تعطينا على قدر ما تأخذ منا.

بات «جوزيف» وولداه يترددون على الكنيسة باستمرار، يتلقون الدعم النفسي والروحي، كما كانت توصيهم «جانيت» دائماً، وبينما

كان الأب «بطرس» يقدم عظته الأولى في الكاتدرائية، وقبل أن يقوم بالصلاة بدأ يعظ، وبعد بداية عظته بقليل فوجئ الحاضرون بدخول شيء أشبه بكرة قدم سوداء، من نافذة الكنيسة حامت على امتداد الحائط فى جانب منبر الوعظ، ثم بدت فجأة وكأنها تتبدد، صاحب ذلك صوت لا يقل فى قوته وافزاعه عن انفجار قذيفة، وتبع ذلك عاصفة عنيفة من البرق والرعد، وسأل الجميع هل الأب «بطرس» كان ضمن ركاب الرحلة الغامضة؟.. وجاءت الإجابة محيرة للغاية إنه من سكان البلدة نفسها، وعندما كان يغادر المدينة لأخرى كان يرتاد القطار أو الأتوبيس فهو لا يخشى شيئاً مثلما يخشى ركوب الطائرة، إذن حدثتني نفسي أنه لا توجد لعنة لركاب الرحلة ٥٣٩، راودني الأمل مرة أخرى فما زالت هناك فرصة للنجاة.

جمعنا مساء أنا ودكتور «بسام» على شاطئ البحر، كنا عائدين إلى المنزل بعد جولة على الأقدام عند الممشى الأسمنتي الطويل، قرب نهر المنكروف حيث كان النسيم لطيفاً حاولنا أن نجد تفسيراً لتلك الظاهرة الغامضة، وأثناء محادثتنا معاً، لفت نظرنا ضوء شارد آت من السماء، وسرعان ما اكتشفنا أنه ليس بضوء، وإنما تحول لكرة حجمها بين كرة التنس وكرة القدم، تتبعنا بأنظارنا الكرة التي عبرت الممشى، وبسرعة شديدة اختفت ناحية أحد المقاهي.

عاودني قلق الرحلة الغامضة، وسرعان ما ذهبنا إلى المقهى، لنعرف ماذا حدث كان بيننا وبينها ربما مائة متر قطعناها سعيا وراء الحقيقة، عندما وصلنا لم نكد نلتقط أنفاسنا اللاهثة، حيث وجدنا هرجاً ومرجاً، والمقهى مزدحمٌ بالزبائن وأكدوا لنا أنهم سمعوا أصوات

طرقعة مخيفة، أخذت تتزايد مع الوقت، وقد استحال مطبخ المقهى إلى وهج لامع.

كانت «فيفيان» صاحبة المقهى تجلس بداخله وهي تقوم بتجهيز الطعام للزبائن، وراحت تؤكد لنا أنها لم ترَ ضوءاً كهذا طوال حياتها، وعرفنا أنها كانت ضمن ركاب الرحلة الغامضة ٥٣٩، وراحت «فيفيان» تكمل حديثها:

– لقد رأيت الناس من نافذة المطبخ يفرون من الشاطئ، وهم يصيحون ويصرخون وقد تزايد ارتفاع صوت الانفجار، ثم وقعت فرقعة ضخمة شملت المكان بأسره، على أثرها خرج زبائن المقهى يركضون ومن بينهم صاحب الساق الخشبية، الذي يجلس دائماً إلى المائدة الملاصقة لمنصة الخدمة، وعندما عدت إلى المطبخ، وجدت أن الغطاء الحديدي السميك للفرن، الذي في المطبخ مشقوق من أوله لآخره.

راحت «مرام» ابنة «فيفيان» صاحبة المقهى تكمل لنا:

– كنت فى زيارة للمقهى عندما حدثت الواقعة، وقد تركت ابني الصغير خارج المبنى داخل عربته، وعندما ارتفع الضجيج أكثر فأكثر، أسرعت مندفعة لإنقاذه فشاهدت كرة النار، كانت ذات لون برتقالى براق فى الوسط، وفى خارجها كان الضوء أبيض خالصاً، وقد أخذت تتدحرج على امتداد حائط المقهى، اقتربت من النافذة. وقفت فى مكاني أتأمل ذلك الشيء، الذي سرعان ما ترك النافذة واندفع نحوى مصطدماً بصدري ثم اختفى.

انضمت إلينا السيدة «لولا» إحدى رواد المقهى راحت تكمل لنا :

- على مسافة من هنا، كنت أقوم بالنزهة اليومية لكلبي، وفجأة سمعت اصطكاكاً رعدياً هائلاً، وصلت إلى سمعي صرخات قادمة من الجانب الآخر، و رأيت الأطفال يركضون وراء تلك الكرة التى يصدر عنها الأزيز، وجدتها قادمة نحوى تسحب وراءها ذلك الذيل الطويل، الذى يشبه الشريط النحاسى والذى يصل عرضه الى بوصتين أو ثلاث بوصات، وانطلقت كالبرق الخاطف.

ذعر الكلبان بينما رحت أراقب ذلك الشيء وهو يبتعد مسرعاً، مصدراً فحيحاً كفحيح الأفاعي، وهي تزحف فيحتك جلدها بالأرض، فيصدر عنها ذلك الصوت المخيف، علاوة على ذلك الطنين الذي يسبق هبوب العاصفة، ويصاحب فحيحها ويتجه الى البحر مباشرة زادت حيرة العالم «بسام الشندويلي»، ولم أكن بطبيعة الحال أقل منه خوفاً وحيرة، خصوصاً أنني لا أعرف ماذا سيحدث لي وأنا ضمن أفراد الرحلة ٥٣٩ العجيبة، التي يكتنفها الغموض وتتصيد المصائب أفراد طاقمها واحداً تلو الآخر، أو هكذا سيطر على ذلك الإحساس اللعين بخوف من المجهول الذي ينتظرني أنا ومن معي على متن الطائرة.

-٧-

رقصت الضحكات المرحة على الشفاه المخضبة بالحمرة، في دعوة تثير شبق المفتونين، خصلات الشعر المتناثرة تراقص الهواء وتعلن عن تمردها، برقصات أفعوانية تمثل الخطر اللذيذ .. كلما مالت بجسدها

اللدن.. مالت معها قلوب الجائعين النهمة، وأيقظت كوامنهم رائحة العطرالأنثوي الفواح وقد اختلطت بالكحول، على إيقاع الموسيقى الصاخبة التي راحت تعزف ثلاثية الغريزة والغواية والموت، فباتوا في عالم أسطوري ليس له وجود في الواقع الحزين.

راحت تنثني.. تتلوى.. تتطاير في الهواء، تارة تجذبها للأمام فتزيد وجهها تألقاً، وتارة تتركها للخلف فتزيد حسنها، وثالثة تمسكه بكلتا يديها وترفعه لأعلى كاشفة عن فتنتها فتزيدها إغراء، لفتات في سرعة البرق.. إيماءات موحية رشيقة، تلعب على حبال الغواية والموت.

تتوحد مع تضاريس جسدها اللولبي، ترفع ذراعيها إلى أعلى ثم تنزلهما بإنحناءة تدريجية تشبه تلوي الأفعى، بإثارة وإيحاء وإغواء، تحت الأضواء العاكسة التي تعكس ألوان بدلة الرقص الحمراء بخيوطها الذهبية، والتي تظهر مفاتنها وجسدها الوردي الذي يشع نوراً فيتألق مع اللون الأحمر الذي ترتديه، وناراً تلهب قلوب المحرومين.

وكأن قرص الشمس الذهبي آثر الاختفاء صباح اليوم ليمنحها فرصة عزيزة المنال، ويهبط تحت قدميها فتتألق بشكل مثير للغاية، يكاد يذهب بعقول الرجال حتى النساء أنفسهن جلسن مترقبات كل حركة من حركاتها، وفي عيونهن نظرة حسد وغيرة من تلك التي تملك ذلك الجسد البض الفاتن، والتي تجيد حركات وفنون تجذب قلوب وعيون أزواجهن التي خرجت من محاجرها ..

جئت تلبية لدعوة «ماهيتاب» وتهنئة لها بافتتاح أكبر صالة رقص في مهسوري، جلست في الصف الثاني أشرت لها محيياً بيدي فحيتني

هي بابتسامتها البراقة وإيماءة من رأسها، كنت على استعداد للذهاب معها لآخر العالم، فلقد افتتنت بها وتمنيت اللحظة التي أخلو إليها لأعبر لها عما يجيش بنفسي تجاهها.

لفت نظري رجلان يجلسان في الصف الأمامي، يبدو أنني أعرفهما ربما أيتهما قبل الآن ولكن لا أدري أين بالتحديد. أفسدا عليَّ شعوري.. تغيرت كيمياء جسدي ولم أعد أفكر بشيء سوى أين رأيتهما قبل الآن.

رحت أشاهد «ماهي» وهي تتألق على خشبة المسرح، والعيون تتطلع إليها في حسرة ويحسدان ذلك الرجل الذي تكون هذه الأنثى من نصيبه، حاولت أن أبعد عن رأسي هذا السؤال لكنني وجدته يلح عليّ إلحاحا شديداً زادت شكوكي عندما وجدتهما يدسان بورقة صغيرة في يديها بعد أن أنهت رقصتها وجاءت تحيي الحضور، وأسرعت بوضعها في حقيبة يدها وقد زاد ارتباكها عندما لاحظت أني رأيتها.

مددت لها يداً باردة وسحنة مقلوبة، حاولت أن أبدو طبيعيا ولكني لم أستطع، ترى ما علاقتها بهذين الرجلين، لقد تذكرتهما.. هذان الرجلان زاراها في المستشفى بعد حادث جانيت. أحدهما بالفعل قد صدمني بكتفه ومضى دون أن يعتذر.. حاولت أن تبدو طبيعية معي وكأن شيئا لم يكن راحت تقول:

- الناس تقول مبروك في هذه المناسبات.

قلت لها بصوت حاد:

- مبروك.

ضحكت وقالت:

- هذا نطق بحكم الإعدام، من الأفضل ألا تقول شيئاً.

على الفور سألتها:

- هل تعرفينهما؟

اضطربت وارتعشت أناملها وقبضت على حقيبتها وقالت بصوت مرتعش:

- تقصد من؟

- هذان الرجلان؟

- معرفة سطحية.

لمحت الدكتور «بسام» يدلف من الباب وكنا نستعد للخروج.. راح يبرر تأخره عن حفل الافتتاح:

معذرة لم أنته من عملي سوى الآن، كنت أتمنى أن أرى الحفل منذ بدايته.

راحت تقول:

– لا عليك يا دكتور «بسام» المهم أنك أتيت هيا بنا لنقضي السهرة في أفخم مطاعم مهسوري والسهرة اليوم على نفقتي الخاصة.

لاحظ دكتور بسام صمتي وتجهم وجهي فقال لي:

– ماذا بك يا محمود هل أنت متعب؟

أجبته:

– نعم فلم أنم ليلة البارحة ولم أسترح طيلة اليوم.

– حاول أن تأخذ قسطا كافيا اليوم.

هززت رأسي بالموافقة، كنت أود أن أصارحه بما رأيته لعله يستطيع تفسير ما حدث لكني لم أفعل.

في هذه الليلة شعرت بالثورة على «ماهيتاب» يبدو أنني تسرعت في علاقتي بها ماذا يدور في الخفاء هل تجمعها علاقة ما بأحد الرجلين، هناك سر ما لا أعرفه ويجب أن أصل إليه.

غيرت «ماهيتاب» دفة الحديث لأول مرة وجدتها تتحدث مع الدكتور «بسام» عن آخر أبحاثه:

اندهش دكتور بسام وقال لها:

– هل ستغيرين مجالك يا ماهي أم ماذا؟

ضحكت وقالت:

- ربما لو أعجبني الحال ستلمس تغييرا ﴿ العلم، ولتخش على نفسك منذ الآن يا دكتور «بسام».

ضحك «بسام» واعتبر الأمر مجرد مزحة، كان طلبها غريباً فما لها وعالم الأبحاث والعلم، ماذا تفهم هي عن «بسام الشندويلي» وأبحاثه.. لاحظ دكتور بسام شرودي وصمتي فقال لي:

- حالتك تستدعي النوم حالاً هيا ننصرف معاً إلى الفندق.

لم أمانع نهضت واقفاً، وقد رسم تصرفي هذا علامة استفهام كبيرة على وجه دكتوربسام وماهيتاب ولكنها قالت لي:

- أتمنى أن تكون أفضل في الغد.

مالت «ماهيتاب» وهمست في أذني «بسام» بكلمات لم أسمعها وأعقبتها بضحكة رنانة.

انصرفنا أنا والدكتور «بسام» ووجدته يقول لي:

- هيا قل ما عندك ودعك من موضوع عدم النوم؟

قلت له:

- كيف عرفت؟

ضحك وهو يجيبني:

- لقد أصبحت أعرفك أكثر من نفسي يا محمود، هل هو موضوع خاص بماهيتاب..

هززت رأسي بالموافقة.

- هل يمكنني أن أعرف أم الموضوع فيه حرج لك؟

- لا على الإطلاق ولكنه موضوع أقل من أن يشغل وقتك..

شعر دكتور «بسام» بعدم رغبتي في البوح له فقال لي:

- أحترم وجهة نظرك يا محمود وعندما تحتاجني تعال إلى غرفتي بلا تردد وقل ما عندك.

كنا قد وصلنا للفندق.. تركني دكتور «بسام» وتمنى لي أحلاما سعيدة.. وذكرني بلقائي معه في الغد.

-٨-

تتوالى المشاهدات والتصريحات، من أناس شاهدوا الظاهرة فهاهى سيدة في منتصف العمر تأتي إلى دكتور «بسام» في معمله الالكتروني، وتطلب مقابلته مصرةً أن تروي له ما حدث معها..

كانت الكرة في حجم كرة السلة، مضت تتدحرج على أرضية الساحة، لم يكن معي أحد في المنزل شعرت بخوف شديد، ولكن تصادَف وقتها أني كنت ممسكة بمضربِ الذباب في يديً، فاستجمعت قوتي وضربتها لتنفجر الكرة مخلفة رائحة تشبه رائحة الكبريت النفاذة.

انصرفت السيدة ولم يكف دكتور «بسام» عن العملِ والتفكير، خاصةً أنه في اليوم التالي عندما ذهب للمعملِ الالكتروني وجد شيئاً هاله، ثغرة فى زجاج إحدى النوافذ بالمبنى فى أعقابِ عاصفة قوية داهمت المدينة بالأمس، راح العلماء والمتخصصون يعاينون المكاَن منَ الخارج والداخل، و لما كان زجاج النافذة قابلاً للانصهار، فقد أرجعوا هذه الثغرة المستديرة الى كرةِ برقٍ، وعندما ذاع موضوع كرات البرق وأرجعوا كل الظواهر السابقةَ إليهاً قلت لدكتور «بسام» :

- لقد أمكن تصوير كرات البرق مرات عديدة.

أجابني:

- نعم بالفعل.. وهذا ما يؤرقني، ويجعلني لا أجزم به، لأن العلماء يتشككون عادة فى مثل هذا الدليل، على اعتبار أنه بإمكان أي محترف أن يستغل ظواهر ضوئية أخرى و يسجلها زاعماً أنها لكرات البرق.

لم أكن على طبيعتي مع «بسام» وكان هو يشعر ببعض التحفظ في معاملتي له، رغم أنه كان يعاملني كصديق حميم، لهذا صارحته بشكوكي..

كان عليّ أن أمسك بخيوط الظاهرة في يدي، وهذا يترتب عليه أن أعود لكل ما حدث منذ بداية الرحلة، وخطر لي خاطر عرضته على الدكتور «بسام» فوافق عليه في الحال، ذهبت لشركة الطيران التي كانت تتبعها الرحلة ٥٣٩ وحصلت على قائمة بأسماء الركاب، كانت المهمة التي فكرت بها أن نتابع كل الركاب، الذين تواجدوا على متنِ الطائرةِ يومها والذين تعرضوا جميعاً لكرة البرق، وماذا حدث لهم.

وجدت نفسي أسير تبعاً لكشف الأسماء، وكان من الطبيعي أن أغفل كل الأسماء التي لم تنج من الاحتراق. تتبعت السيدة «جمانة سيف» وابنتها الرضيعة «داليا»، سألت عنهما لأجدهما بإحدى مستشفيات مهسوري، تملكني الرعب وما إن ذهبت إلى هناك أنا ودكتور «بسام الشندويلي» حتى سألنا عن الحالة في قسم الاستعلامات، وعرفنا أن المريضة كانت «داليا» الصغيرة جاءت على أثر تقلصات شديدة في بطنها، وأنها الآن في حالة جيدة ومستقرة.

توجهنا على الفور إلى الغرفة رقم تسعة وثلاثين، وقبل أن ندخل وجدنا تجمعاً غفيراً أمام الغرفة وسمعنا صراخا شديدا، وما لايقل عن اثني عشر طبيباً غير الممرضات والعاملين، الجميع يحاولون إنقاذ الطفلة الصغيرة، والتي تحملها أمها على يديها، ويبذلون كل جهد لإبعاد الصغيرة عن الأم دون جدوى تحولت «داليا» الصغيرة إلى كرة من النار، وقد لفت بسياجٍ من لهبٍ أزرق، كنا نشعر بحرارتها في المكان، وكأنها أتون مستعر، صرخاتُ الأم تقطع نياط القلوبَ كمن أصابها مس شيطاني، وتحولت الصغيرة إلى ذرات من الرماد في دقائق معدودة أمام أعين الجميع وسط صرخات الأم.. الغريب أن الأم لم تصب بأية حروق، رغم أنها كانت تحملُ طفلتها على ذراعها، لم تتوقف الأم عن الصراخ حتى سقطت مغشياً عليها وسط ذراتِ رماد «داليا»، فاختلطت دموعها بذراتِ رمادِ الصغيرة لعلها تشعر بلوعةِ الأمِ المكلومة، وترد لها روحها ولكن دوَن جدَوى.

لم يملك الأطباء إلا إعطاء الأم حقنة مهدئة، وظللنا وسط دهشتنا لا نستطيع التحدث أو التعليق، وعلى الفور انتشرت لجنة التحقيق

تباشر عملها، و كل ما أمكنها التوصل إليه أن الحرارة التي احترقت بفعلها الصغيرة وصلت لأكثر من ألف وخمسمائة درجة مئوية، وانضمت «داليا» إلى تلك القائمة التي حكم عليها بالاحتراق و لعنة الرحلة ٥٣٩ .

عدنا أدراجنا نرتدي خيبة الأمل التي تزفنا وراء كل حادث، ونحن نضرب أخماساً في أسداس، وتلقى على مسامعنا نفس التساؤلات، ونفس الإجابات دون أن نصل إلى حل، أو نفهم ما يشفي غليلنا .

تابعنا حالة السيدة «جمانة»، التي لم تكد تفيق حتى تطلق صرخاتها المكلومة وآهاتها المكتومة في كل مكان، وكأنها تأتي بها من أعماق الأرض، ليستيقظ كل الموتى ويهبوا من رقادهم لإنقاذ الطفلة الصغيرة التي لا ذنب لها إلا أنها سيقت إلى الوجود، وخرجت منه مرغمة.

راحت الأم الثكلى تنتف شعرها، وتنهش بأظافرها في وجهها، لا .. إنه وجه الموت، وجه الردى الذي خطف وحيدتها لينزف دماً كما يدمي قلبها، لم يستطع الأطباء خلال ساعات قليلة، أن يسكتوا آلامها أو يفقدوها وعيها، فقلبها عاجز عن تحمل الصدمة، وعقلها رافض لما رأته بعينيها .

ظلت «جمانة» تصرخ حتى تحول صراخها لصمت مطبق، وتلاشى كما تلاشت الصغيرة من العالم، ولم يتبق منها سوى مجرد ذرات تذروها الرياح، أو ربما يلحق بها دكتور «بسام» في قنبلته المصنوعة من الرماد ليفجر الرماد ناراً يوقظ بها قلوب النائمين، ويلين بها قلوب العتاة الظالمين، فما أقسى نيران الحق عندما تقف في وجه الباطل، قد يظنها خامدة هامدة، ولكنها تموج بالثورة والثأر لكل من ذهبوا ولم يقتص لهم، فهل يأمن جانب الرماد؟.

شغلتني شغلتني طوال الوقت تلك العلاقة فرحت أفكر فيها بدأب، علاقة جمعت بين كرات البرق التي شاهدناها جميعاً، على متن الطائرة في الرحلة ٥٣٩ الغامضة، وبين إصابة كل من تواجد على ظهر الطائرة، حتى وإن نجا بعضهم حتى الآن، لكني لم أصل لنتيجة وربما تكون مجرد صدفة بحتة، أعود لأسائل نفسي هل يمكن أن تتكرر الصدفة بهذا الشكل ولا أجد جواباً يشفي غليلي.

منذ قابلت السيدة «فيفيان» صاحبة المقهى، وهي تقص علينا أنا ودكتور «بسام» ما رأته في مقهاها، وفرار جميع رواده في حالة عصبية سيئة، يلح علي شعور قوي أن أعرف قصة هذا الرجل صاحب الساق الخشبية.

أصبحت أتردد يومياً على المقهى، ومن الغريب أن ذلك الرجل كان يجلس دائماً ساهماً شارداً تعلو جبهته تقطيبة تنم عن حزنٍ دفين حفر ملامحه في وجهه.

أخبرتني «فيفيان» أنه أصيب بحالةٍ من الإغماء، عند رؤيته لكرة النار، ولم يدر ما حدث بعدها إلا ممنً حوله، ولكنه كان أمراً طبيعياً فلقد شعر الجميع بالذعرِ الشديد. وجدته يجلس كعادته مهموماً، عندما اقتربت منه نظر لي بتوجسٍ فقلت له:

- هل يمكنني الجلوس إليك؟

راح ينظر لي من وراء نظارتهِ بتردد، يحاول أن يقرأ معالم وتفصيلات وجهي إلا أنه نطق أخيراً:

- بالطبع.

عدت أسأله من جديد:

- وجهك ليس غريباً عني، هل تقابلنا من قبل؟

رفع الرجل وجهه وعاد يتفرس في وجهي من جديد، ويحاول أن يعصر ذاكرته، قطعت عليه أفكاره:

- هل كنت ضمن ركاب الرحلة ٥٣٩؟

انتفض الرجل كمن لدغته حية، وهو يقول بأسى وقد تغيرت نبرته:

- بالفعل، ولكن لم يكن حالي كما هو عليه الآن..

- كيف؟

نظر إلى ساقه الخشبية بحزنٍ شديد، ثم عاد ليكمل كلامه وقد أطلق تنهيدة عميقة كدت أطير معٍ زفراتها، أتتذكر تلك الكرة التي ظهرت في الطائرة؟ وما حدث من هرج ومرج؟

- نعم.. أذكره جيداً.

- إنها سبب مأساتي.

وبلهفة رحت أسأله وقد شعرت أنني قد اقتربت من حل اللغز:

- كيف؟

- لقد حدث بعد وصولي لهذه المدينة شيء غريب، كنت قد خرجت في رحلة خاصة بالعمل، وأثناء عودتي عندما نظرت إلى ساقي وجدتها مضيئةً، وكأن بداخلها إضاءة قوية، كانت ساقي أشبه ببلورة زجاجية تكشف عما بداخلها، وكأنها قد صنعت من الكريستال النقي، أرى النيران التي تستعر بداخلها وكأني أشاهدها على شاشة إلكترونية، وما هي إلا ثوان معدودة، وقد اشتعلت النيران بنصفي الأسفل، وبالتحديد في ساقي اليمنى.

شعرت بتوهج داخلي وإحساس مخيف للغاية، حاولت بكل الطرق إبعادها دون جدوًى، وفجأة وقعت على الأرض، لا أدري ما الذي دفعني أن أربت على هذا المكان المتوهج من جسدي، والذي يزداد توهجه كجمرة متقدة، ربما تصرف تلقائي أو قل إنه حب الحياة والسعي وراءها لآخر رمق، لأجد أن النار بدأت تخبو شيئاً فشيئاً، حتى خمدت النيران بساقي، ولكن يبدو أنها كانت جائعة فالتهمتها ولم يتبق منها سوى أطلال وأصبحت منذ ذلك اليوم بساق خشبية، أنعي حظي المشؤوم، وألعن ذلك اليوم الذي ارتدت فيه تلك الطائرة و الرحلة الملعونة.

ربَّتُّ على كتفه مهوناً، وقلت له:

- هل تعلم أنك شخص فريد من نوعك تتمتع بحظ عالٍ.

نظر لي الرجل مشدوهاً وكأنني أبله وقال:

- كيف أكون محظوظاً بعدما فقدت ساقي في حادث غامضٍ لا يحدث لأي فرد في العالم، وعندما أرويه لأحد يظن أنه ً قد مسني الجنون وأهذي بخرافات، إنه ضرب من اللامعقول.

أجبته:

- أنت أول شاهد عيان ناج من كرات النار في العالم، لقد وصلت تلك الحالات حوالي مئتين وخمسين حالة أنت الناجي الوحيد أقصد أنت أول من ينج بعد عدد من الحوادث المماثلة الذي يمكننا من الوقوف على حقيقة الأمر، هل فقدانك لساق واحدة أفضل أم فقدانك للحياة بأسرها.

أجابني وفي صوته نبرة تلوم وتعاتب الزمن وتنعي حظه العاثر:

- وكيف لي أن أعيش بساق واحدة؟

- منحك الله أخرى يمكنك أن تسير بها في طرق كثيرة للخير، لتسعد نفسك وغيرك، ومن يدريك لعل ما حدث حجب عنك ما هو أسوأ.

هز رأسه بسخرية بين مستسلم ورافض عاد يسألني:

- هل تظن أن هناك علاقة بين ما حدث في الطائرة وفقدان ساقي؟

شعرت بالحيرة ولم أجد جواباً..

لكني رحت ألقي على مسامعه عدداً كبيراً من الأسئلة حتى ضج مني، تركت المقهى وأنا أكثر حيرة، فلقد كنت أظن أن هذا الرجل هو ضالتي وإنني سأجد حل اللغز لديه فهو الناجي الوحيد من حوادث الاحتراق، لكنه جعل الرؤية أكثرضبابية، فلم أعد قادراً على معرفة أي شيء. لقد اختلطت كل الأمور في رأسي.

سلكت الطريق إلى منزلي، ولم أستطع التوقف عن التفكير في هذه الظاهرة التي أقضَّت مضجعي، وحرمت أجفاني النوم، منذ وطئت أقدامي هذا المكان اللعين، لقد أصبحت أخشى أن أتوهج ليلاً أو نهاراً وفي أي لحظة، فليس لها مقدمات ولكنها نهايات لكل شيء.

طيلة الوقت أراقب كل جزء من جسدي، خشية أن تشب فيه النيران فجأة، ولا أحد يستطيع إنقاذي، وهل استطعنا إنقاذ كل من احترقوا أمام أعيننا وهم يطلقون صرخات الاستغاثة، ونحن نقف أمامهم عاجزين؟.

-١٠-

إحساس بالعجز يؤرقني، لعله عجز العلماء عن إيجاد تفسير لهذا الغموض الذي أصبح يعتري حياتنا، أتمنى لو أترك هذه المدينة الملعونة، وأفر إلى غير رجعة حيث موطني والشعور بالأمان لكني لا أستطيع. حاصرتني الألغاز والشكوك من كل جانب، لم تعد لي القدرة على فهم تصرفات «ماهيتاب» كثرت عنها الأقاويل فمن يكون هذين

الرجلين اللذين رأيتهما في غرفتها بالمستشفى، وماسر علاقتها المريبة بالدكتور بسام دائما بصحبته، تهمس في أذنه ثم تضحك ضحكتها الرنانة الملفتة للانتباه، واليوم ألمحها تخرج من غرفته على عجل وهي تسوي شعرها وتعدل من هندامها وتنظر حولها ثم تنطلق مسرعة.

ما الذي أصابني هل نشبت نار الغيرة في قلبي، هل ارتددت صبياً مراهقاً يتمزق عندما يرى محبوبته مع آخر، ماذا تكون ماهيتاب بالنسبة لي، حقاً شعرت في فترة من الفترات أني متعلق بها وقد صارحتني بحبها لي، وها هي الآن تعشق رجلاً آخر غيري، هل وقعت في حب غانية تبدل عشاقها كما تبدل ثيابها، هل هبطت من أفق محبوب إلى مجرد زبون صالة يتعلق براقصة تجالس غيره من الزبائن.

حب الفضول يسيطر علي.. يدفعني دفعاً خلفها في لهاث المحروم، أقنع نفسي أني أبحث عن تفسير لتلك الظاهرة التي نشبت فجأة فأحرقتنا جميعاً، فإذا بكل منا كرة من نار تتأجج تنتظر لحظة الانفجار، ومن يدريني أنني في مأمن منها،وجداني ومشاعري لا يستقران على حال، يتقلبان بين الفينة والأخرى وكأن إعصاراً يجتاحني.

فجأة لمحت «ماهيتاب» بعد أن تنهي رقصتها تتأبط ذراع مدير الملهى ويخرجان معاً في تلك الليلة قررت أن أقطع كل علاقة لي بماهيتاب وأسرعت بدوري إلى مكتب بسام الشندويلي.

فتحت لي الباب فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، ظل كلانا ينظر للآخر حتى بدد الدكتور بسام الشندويلي سحابة الارتباك التي سيطرت علينا للحظات وهو يقول:

– تفضل يا أستاذ محمود لا أحد غريب إنها سوزان حكيم مساعدتي في معملي الالكتروني بجامعة فلوريدا، وتلميذتي النجيبة.

مددت يدي مرحباً. فقالت لي:

– تستطيع أن تدعوني «سوزي» فكل المقربين يدعونني بهذا الاسم.

راح «بسام» يكمل حديثه:

– جاءت تستشيرني في جزء هام برسالتها، فقد أوشكت على الانتهاء، وانشغلت عنها بتلك الظاهرة.

والتفت الدكتور «بسام» إليها:

– معذرة «سوزي» سأنجز بعض الأعمال وأتفرغ لك تماماً.

عرضت عليها أن أصطحبها في نزهة إلى المدينة، حتى يتفرغ لها دكتور «بسام» فوافقت مرحبة

وكأن «سوزي» قد ظهرت في الوقت المناسب لتخرجني من أسر ماهيتاب، وفي حقيقة الأمر لم أكن دليلها في المدينة بل هي التي كانت دليلا لي في نسيان محبوبتي الغانية واندمال الجرح الذي أصابتني به ماهيتاب. راحت «سوزي» تسألني عن تلك الظاهرة التي شغلت الدكتور «بسام» والتي انتشرت في الآونة الأخيرة، وماذا أسفرت تحريات رجال الشرطة في كل الحوادث التي حدثت سواء في المدينة أو خارجها.

فوجئت أنها ملمة بكل ما حدث، وأنها مهتمة بهذا الموضوع اهتماماً بالغاً، وأدركت أنها جاءت من أجله خصيصاً مع الدكتور «بسام»، وخشيت أن يتحقق الهاجس الذي راودني من قبل بأن يكون للدكتور «بسام» أعوان في كل مكان ينفذون له ما يريد.

ولكن لا يمكن أن يكون لهذا الجمال الهادئ أي علاقة بالأذى، وقد أكد لي «بسام» مرات عديدة بأهمية هذا الموضوع للبشرية فهل يصدق حدسي، أتمنى أن يخيب ظني هذه المرة.

وجدتني شارداً فنظرت في ساعتها فأدركت أن الوقت قد حان للعودة، للقاء دكتور «بسام» وانطلقنا إلى المطعم لتناول العشاء معاً حسبما اتفقنا معه.

ذهبنا في موعدنا تماماً، لنجد دكتور «بسام» قد وصل إلى المطعم، وجلسنا نتبادل الحديث

بدأ الدكتور «بسام» حديثه مع « سوزي» عن موضوع رسالتها:

- ما وراؤك يا «سوزي» هل أنجزت كل التعديلات التي طلبتها منك في المرة السابقة؟

- نعم.. يا دكتور.. وانتهيت من فصل الدراسات السابقة ومناقشته.

- هذا إنجاز عظيم.

- ولكن يا دكتور هناك أمر خطير قد انتابني منذ سمعت بهذه الظاهرة؟

- ماذا يدور بخلدك يا «سوزان» ؟

- لقد استهواني الموضوع والفكرة خصوصاً أن هناك احتمالات عدة يجب أن نبحث فيها ونجري تجارب عليها .. ولقد جمعت كل ما كتب عنها، ولدي أفكار جديدة ربما تضيف لهذا الموضوع.

ضحك دكتور «بسام»وقال لها :

- كنت أعرف أن وراء زيارتك موضوعاً خطيراً للغاية، وها هي النبوءة تتحقق.

- ما رأيك يا سوزي هل ستتغافلين عن كل ما أنجزته خلال الفترة الماضية؟

سكتت سوزان قليلا قبل أن تقول:

- أنا متشوقة للعمل في هذا الموضوع ولدي خطة بحث قوية سأعرضها عليك يا دكتور..

- إذن اتفقنا .. اكتبي الخطة وأريني إياها ..

تفتح سوزي حقيبتها وتخرج منها الخطة كاملة وتقدمها للدكتور «بسام» الذي أخذ يطالعها ثم نظر إليها وابتسم ابتسامة ثقة وسعادة بتلميذته وقال لها :

– هذا هو ما أفكر فيه يا سوزي بالفعل.. أرأيت يا محمود أليس لي الحق أن أتمسك بها كمساعدتي وتلميذتي إنها دائماً جاهزة.

عادت تكمل حديثها مع الدكتور «بسام»

– أنت تعرف يا دكتور أن كرات البرق تحدث من وقت لآخر داخل الغواصات.

– نعم.. وذلك نتيجة لإساءة استخدام مفتاح السرعات والتي تستمد وجودها من البطاريات التى تستخدم فى الغواصة.

– بالطبع.. وعند وقوع الخطأ تخرج كرة البرق من مؤخرة مفتاح السرعات.

– نعم.. كل ما قلته صحيح ولكن لا أفهم ماذا تريدين من هذا؟

– طوال الفترة الماضية حاولت أن أقوم بإجراء التجربة أكثر من مائة مرة وفي كل مرة تبوء بالفشل ولا تخرج كرة النار.

– ما رأيك فيمن يجري معك التجربة؟

– صحيح يا دكتور..أنا سعيدة للغاية أن نعمل معاً في هذا الموضوع بالذات، أرجو المعذرة يا دكتور ولكن ماذا سنفعل؟ وأين؟ وكيف؟

عاد دكتور «بسام» يتحدث وهو متحمس:

- اهدئي.. كل شيء سيأتي في حينه.. سنحاول إجراء التجربة على وحدة بطارية في غواصة حقيقية حتى تتحقق الظاهرة التي نبحث عنها:

عادت تسأله:

ولكن هذا المشروع مكلف جدا من الذي سيتحمل كل هذه الميزانية؟

أجاب دكتور «بسام»

- هذه الميزانية تم رصدها بالفعل ولكنها مهملة منذ سنوات طويلة لفشل تجاربهم عليها، لقد استطعت الحصول على الموافقة لإجراء تجاربنا عليه.

-صحنا معاً في صوت واحد رائع يا دكتور.

ضحكنا جميعاً واتفقنا أن نبدأ العمل منذ صباح الغد. جد له جوابا

-١١-

كنا قد أعددنا العدة والترتيبات اللازمة لبدء العمل في التجربة، حتى أرسل لي «تيم اسماعيل» من ولاية بنسلفانيا الأمريكية، حيث يعمل مراسلاً صحفياً هناك عن حادث مشابه، فحزمت أمري وكدت أسافر دون أن أخبر دكتور «بسام»، و «سوزي» ولكني تراجعت عن ذلك الهاجس، واضطررنا لتأجيل التجربة حتى العودة، وبالفعل ذهبنا معاً لنجد سلطات التحقيق تبحث في الأمر..

كان الحادث الجديد لطبيب عاد لتوه من المستشفى بعد أن أجرى عملية دقيقة لإحدى المريضات، وقبل أن يتناول العشاء الذي أعدته له زوجته، اشتمت الزوجة رائحة غريبة تشبه رائحة الجلد المحترق، وفوجئت بزوجها ينتفض صارخاً بينما شعلة من النيران تندلع من جسده، وقبل أن تحاول إنقاذه كانت جثة الطبيب المحترق قد تهاوت على الأرض ولم يتبق منها سوى جزء من إحدى ساقيه، وفي قدمه خف منزلي كان يرتديه قبل الحادث، أما بقية الجثة فقد احترقت بالكامل وتحولت إلى رماد.

عندما بحث المحققون وفحصوا أرضية الحمام، وهو المكان الذي وجدت فيه بقايا الطبيب، وجدت حفرة صنعتها النيران التي التهمت جسد الرجل، كان الكل يقف مشدوهاً وبرغم رؤيتي من قبل «لجانيت» والطفلة «داليا»، وهن يحترقن أمامنا، كان الموقف عصيباً علي، وخصوصاً «سوزي»ولا أدري إن كان دكتور «بسام» قد اعتاد رؤية هذا المشهد أم لا فهو يتعامل معه بشكل مختلف، فهو يفصل مشاعره كإنسان ويتعامل كطبيب وباحث.

أثناء عودتنا بادرت الدكتور «بسام» قائلاً:

- هذا الحادث ينفي لعنة الرحلة ٥٣٩ فالطبيب لم يكن معنا في الطائرة.

أومأ الدكتور بسام معقبا وهذا الحادث أيضا يبعد عن الأذهان أن الاحتراق لا يحدث إلا للنساء فقط.

حاولت هيئة التحقيقات البحث عن مصدر لأي شرارة كهربائية، أو معرفة سبب اندلاع النيران ولكن الغموض ما زال يحيط بالحادث.

لم أنم تلك الليلة جلست إلى الكمبيوتر لأكتب تفاصيل الحادث كي أرسل بها إلى مكتب الجريدة، وعندما شرعت بالعمل أخرجني رنين الهاتف.. كان الدكتور «بسام» لم يكن صوته طبيعيا يلهث بشدة كأنه في مطاردة رحت أسأله بجزع:

- دكتور «بسام» ماذا بك؟

وجدته يحادثني بصوت منخفض:

محمود.. احذر إنهم يتبعوننا ويتنصتون علينا، لقد اكتشفت أن حجرتي تم تفتيشها تفتيشاً دقيقاً.

سألته:

- هل تعرضوا لجهاز الكمبيوتر؟

- لحسن الحظ كان معي عندما نتقابل سأشرح لك كل شيء ثم أغلق الهاتف وتركني في دوامة من الأفكار، ما العمل تراهم الآن يراقبونني،مرت الدقائق دهراً بأكمله، كلما سمعت حركة أظنهم هم قد جاؤوا للانتقام منا. أشعر بعيونهم تتفرسني دون أن أراهم، أكاد أسمع صوت أنفاسهم خطواتهم تقترب مني للحظة شعرت أن الفراغ المحيط بي بالفندق سوف ينشق عن أيد ومديات وعصي ورصاص، كاد قلبي يتوقف في صدري من الخوف أسرعت خارجا

من غرفتي ورحت أهبط درجات السلم إلى أسفل فوجئت بالدكتور بسام ينتظر بسيارته أمام الفندق دفعت بجسدي داخلها وأطلق لها العنان مبتعداً..

استطعنا عبور الظلام الساكن على عتبات الضوء، في كل شارع من شوارع المدينة الغريبة، فمنذ وطئت بأقدامي هنا، ونحن لا نسمع إلا عن تلك الحوادث المرعبة التي ليس لها تفسيرمنطقي مقبول، نظرحيث كانت سيارة تتبعنا منذ انطلقنا من أمام الفندق، عندما أخبرت بها الدكتور بسام قال لي:

– أعلم أنهم لن يتركونا لنلتقط أنفاسنا، ولكن أنا لدي تخطيط جيد أتمنى أن يسعفني الوقت لتنفيذه قبل أن يقترفوا معنا أي حماقة.

قلت له:

– اطمئن يا دكتور لن يتركونا أو يقتلونا إلا بعد أن يصلوا إلى بغيتهم.

❖❖❖

كانت السيارة التي تتبعنا مصرة على ألا نفلت منها تحاورنا.. تجاوزنا.. وتعود لتدور حولنا.. كلما انحرفنا يميناً أو يساراً اتخذت نفس المسار، دخل «بسام» في شارع كبير وترك السيارة جانباً، أشار لي أن أتبعه، وإذ بنا ندخل حارة ضيقة، ومنها إلى عطفة أضيق تؤدي إلى مكان غير معلوم، لم أستطع أن أعرف أين نحن، اتجهنا لمنزل قديم متهالك،

يبدو أن سكانه قد هجروه منذ سنوات طويلة، خمنت أنه ربما يكون مكوناً من طابقين، عندما أضاء دكتور «بسام» كشافه لينير لنا الطريق.

بصيص خافت من الضوء نراه بالكاد، الظلمة تقودنا لسراديب مجهولة ضيقة خانقة، لم يرتدها بشر منذ زمن طويل، رائحة عطبة وعفنة تنبعث من كل مكان، كنت أشعر بحاستي أننا نهبط درجات خشبية متهالكة إلى أسفل، يوحي الجو العام بانقباض وخوف، صرت ألعن الظلام وألعن الرحلة الغامضة التي أوقعتني في هذا القبر الموحش.

هبطنا درجات كثيرة وكل منا ممسك بالآخر، لكن يبدو أن دكتور «بسام» يعرف هذا المكان جيداً، بل يحفظه عن ظهر قلب، كادت قدمي تهوي في حفرة، لولا أن صاح «الشندويلي» فجأة -احذر يا «محمود» الحفرة.

وما إن لمست قدمي درجة السلم الأخيرة صرخت بأعلى صوتي، فقد تسلل شيء إلى بنطالي، وعرفته من صوته يبدو أنه فأر صغير حاولت إخراجه وأنا أصرخ و«الشندويلي» يضحك بملء فيه وهو يقول:

- شر البلية ما يضحك.

اغتظت منه وقلت له:

- تضحك مني وأنا في هذا الموقف، بدلاً من أن تخلصني

قال لي وهو ما زال يضحك:

- تخشى فأراً، ماذا ستفعل مع أفراد العصابة يا رجل المهام الصعبة؟

قلت له يا عزيزي كم أخشى هذه الكائنات المتسللة المراوغة، كلما رأيتها، تنتابني قشعريرة وصدمة عصبية، ويتوقف مخي عن العمل وكأن رأسي تحول لشوكات منتصبة محترقة فقدت صلاحيتها.. فما بالك بها تتسلل داخل ملابسي.

ربت على كتفي وقال لي:

- اطمئن يا صديقي أنت هنا في مأمن بعيداً عن العيون.

فجأة مررنا بسرداب مظلم طويل، ظللنا نسير فيه قرابة نصف الساعة، لنجد أنفسنا بعدها في شارع كبير يعج بالمارة، ووجدت محطة قطار. ما إن ركبنا حتى ألقى كل منا بجسده المنهك على المقعد، بالرغم من حالة الإعياء التي كان كل منا يشعر بها إلا أنني صممت أن أبادر «الشندويلي» بسؤال:

- أرجوك يا دكتور «بسام» قل لي أين نحن؟

أجابني وهو يبتسم:

- اطمئن فقد أفلتنا من مطاردتهم.

- حمدت الله على تمكننا من الهرب،

وجدت «الشندويلي» يناولني جريدة، وقد فتحها على صفحة بعينها وهو ويقول لي:

- أقرأ هذا الخبر وقل لي رأيك.

وقعت عيني على أغرب خبر قرأته في حياتي عالم وصحفي، يتزعمان عصابة للحصول على الأجساد البشرية، نزل الخبر على كالصاعقة، فهم يتهموننا بسرقة الأجساد البشرية وحرقها، نظرت في وجه «بسام الشندويلي» لأجد ابتسامة ثقة كبيرة على شفتيه لم أكن أتوقعها بعد كل ما كتبه هؤلاء الأوغاد، ولكنه راح يقول:

- هل صدقتهم؟ لقد لمحت علامات الشك والريبة منذ فترة ولم أصارحك لأرى إلى أين ستأخذك ظنونك بي..

أجبته:

- بالفعل أنا منذ فترة يساورني القلق بهذا الشأن.

- هؤلاء الملاعين أشعلوا الرأي العام ضدنا فماذا سنفعل؟

- أنت تتحدث وكأنك مدان بالفعل، هل نسيت أنك صحفي تتواجد أينما وجد الخبر.

- وكيف سنثبت للشرطة العكس؟

- لسنا متهمين حتى نثبت العكس، دعهم يجعجعون كما يريدون، أنت تعلم أن مثل هؤلاء لا يبغون من وراء عناوينهم إلا الفرقعة الكاذبة، هل هي المرة الأولى في عملك التي تواجه بها أفاقين من هذا النوع، عندما يتهمك أحد، لا بد وأن يكون لديه الدليل على إدانتك، وهناك سبب رئيسي يفعلون من أجله كل تلك الضوضاء.

لاحقته لأعرف منه:

- إنهم يحاولون أن يشعرونا بالتوتر والقلق، فلا نستطيع السيطرة على أفعالنا، وتهتز أعصابنا حتى أتحرك بشكل عشوائي، ليستطيعوا الحصول على البحث بأيسر الطرق وهذا هو كل ما يهمهم، ويشغل بالهم في الوقت الحالي.

- وهل أنت واثق من المكان الذي تخفي فيه بحثك؟

- أتظن أنك تتعامل مع صبي مراهق لا يدرك نتائج أفعاله.

- كنت أعلم أن هذا البحث سيجلب لي المشاكل، وقد صدق حدسي وها هي بدأت تأخذنا في أغوارها.

- وما ذنبي أنا في هذه القصة وما دخلي بالبحث؟

- ألست صديقي الذي يرتاب في، ألم تنشر عن الحادث رغم تهديداتهم لك، إنهم لو يعلمون تشككك هذا بالنسبة لي، لبادروا بالاتفاق معك ضدي، وأقنعوك مائة مرة أني أنا المجرم الحقيقي والفاعل الأصلي وراء كل هذه الحوادث.

- إنهم يعلمون أنك تعرف كل شيء عن البحث، وأنك ترافقني خطوة بخطوة، علاوة على أنك لم تستجب للتهديدات وأصررت على نشر حقائق قد تؤثر عليهم، وتضيع عليهم فرصة حقيقية.

- معنى ذلك أنهم سيطاردون كل من يقترب منك؟

أجابني:

- هذا يتوقف على عمله، وماذا يمثل لي.

جال ﾀ خاطري مشهد أرعبني وصحت على الفور:

-إذن قرب سوزي منك ﾀ هذه الفترة يمثل خطورة شديدة عليها .

- أصبت وهذا ما فكرت فيه بالفعل، ولهذا أرسلتها ﾀ مهمة إلى فلوريدا لإبعادها هذه الأيام عن الخطورة ريثما نعود ونفكر ﾀ الأمر، وقد كلفتها بإحضار جهاز جديد يمكن عن طريقه إحداث ظاهرة البرق ﾀ غرفة صغيرة، حتى نتمكن من تفسير هذه الظاهرة التي حيرتنا .

- حسنا فعلت.

-لكني أريد أن أعرف ما أهمية هذا البحث لديهم؟

ضحك دكتور «بسام» وهو يقول:

- هذا البحث يا عزيزي، يوفر على تجار الأسلحة والمصدرين لها بلايين الدولارات، دون عناء أو مشقة، فهم يقتلونهم ويعيدون تصنيعهم.

وانطلق مرة أخرى ﾀ الضحك. وكأنه تذكر شيئاً مهماً فتوقف فجأة عن الضحك وهو يقول:

- يكفي أن تعرف يا محمود أنهم عرضوا عليّ مقابل التنازل عن هذا البحث وإعطائهم كل شيء يتعلق به، ثلاثمائة مليون دولار! قابلة للزيادة وهم رهن الإشارة.

- وما الذي يضحك ﾀ هذا؟

– تصورت أنهم سيتهمونني بالغباء حين أترك مثل هذه الصفقة.

في الوقت الذي فكرت فيه مع دكتور «بسام الشندويلي» في طريقة للهرب من هؤلاء الذين يتبعوننا، ولا يتركون لنا مجالا للتفكير أو البحث أو النشر.

اتصل بي أحد أصدقائي المراسلين يطلب مني سرعة الحضور إلى لندن فقد ظهرت حالة احتراق منذ أقل من ساعة، وعلى الفور انطلقنا أنا و «الشندويلي» لنتواجد مع الحدث، وجهاً لوجه.

-١٢-

لم تتوقف الأحداث المؤسفة، كان أغرب شيء رأته عيناي، وبالرغم من أنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذا النوع من الحوادث المؤسفة، فلقد شعرت للحظات أنني أعاين مشهداً من مشاهد السحر الأسود في العصور الوسطى، اطلعنا على تقرير الشرطة ووجدنا أن السيدة أرملة تعيش في منزلها بمفردها، في العقد الرابع من عمرها تجلس على كرسي وثير بغرفة نومها، تدخن لفافة من التبغ قبل أن يهاجمها النعاس، أشعلت اللفافة قميص النوم المصنوع من الألياف الصناعية، فالتهمت النيران جسد الأرملة العجوز، وبالرغم من ذلك لم يحترق الكرسي الذي تجلس عليه، تجولت بنظري في المكان وأنا أطلع على التقرير لأجد أن ما كتب فيه غير مقنع للغاية، خصوصاً أن الجدران من حولها مغطاةٌ بدهان من البلاستيك، ويوجد شمعتان بجوارها، لم تمسسهما النيران.

راح الدكتور «بسام» ينظر لي من خلف نظارته وهو يطالع التقرير ويقول:

– هل يمكن للفافة تبغ توليد طاقة حارقة بكل هذه القوة حتى تأتي على السيدة التي أصابتها نيران بقوة ألفين وخمسمائة درجة مئوية؟!

هززت رأسي بالنفي وقلت له:

– لقد قرأت أنه في عام ألف وتسعمائة وثلاثة، وصل إلى «سان بطرسبرج» حديث عن قوى صوفية قادمة من سيبريا، ذات عيون وحشية مضيئة، ونظرة مجنونة، ساهم ذلك وقتها في شهرة «راسبوتين»........

هز رأسه مؤمناً على كلامي ولم يعلق.

كانت الأحداث متتابعة، والحالات تتزايد يوماً بعد يوم، ولا يوجد سببٌ بعينه يؤدي إلى حدوث الظاهرة أو السير في طريق يوصلنا إلى الحقيقة، ورحت أسأل دكتور «بسام»:

– يجب أن تعطيني تفسيراً معقولا لما يحدث وإلا سأجن.

أجابني:

– بعض المتخصصين أرجع هذه الظاهرة لما يسمى بالبلازما، أو الحالة الرابعة للمادة التي تضاف الى حالات الصلابة و السيولة و الغازية، علاوة على أن اكتشاف البلازما قدم إطاراً يمكن من خلاله تفهم هذه الظاهرة، أو على الأقل الاقتراب منها أو محاولة تفهم غوامضها، هذا بالإضافة الى أن تيار شهود العيان المتواصل

لم يتناقص، أما بالنسبة لما حدث لصاحب الساق الخشبية، فالبعض يفسر ذلك بأنه إذا ما تعرض الجسم البشري لهذه الكرات وحدث اصطدام بالبرق يتولد هذا الاحتراق الهائل.

- ولكن يا دكتور «بسام» الرجل لم يتعرض وقتها مباشرة وإنما بعدها بأيام!

- نعم.. معك حق.. ولكن ربما ادخر جسمه هذه الطاقة التي تعرض لها في رحلته الغامضة حتى اصطدم بالبرق، فما يحدث يمكن أن أشبهه تماماً بما يحدث في فرن الميكروويف، فهناك عدة نظريات تعلن أن كرات البلازما تولد مجالات مغناطيسية ذاتيا، فالبلازما غاز من الجزيئات المتأينة وكذلك الإلكترونات، كما أنها محايدة الشحنة الكهربائية تتحرك بشحناتها الكهربائية بما تحتويه من الكترونات وأيونات لتنتج الحقول المغناطيسية مما يرفع درجة حرارة هذه الحقول إلى درجات مرتفعة للغاية، وهذا يعني أن أن الجزيئات يجب أن تتحرك بسرعة، كما هو الحال في كرة البرق.

- تفسير منطقي خاصة وأن هذه المدينة، يكثر بها البرق والرعد وربما يكون هذا السبب له علاقة بكثرة حالات الاحتراق لأنها تقع في نفس المجال.

كان حديث دكتور «بسام» دقيقاً للغاية، اقتنعت بمعظمه، لدرجة أنه قد سيطرت عليّ حالة من الذعر الشديد، فرحت أتفحص جسدي متوقعا أن تهب منه النيران في أية لحظة.

استيقظت في منتصف الليل، على صرخات أحد الجيران، لم أكن أعلم في البداية مصدر الصوت، ولكن رويداً اتضح لي، توجهت حيث مصدر الصوت محاولا تخمين الأمر. كان الصراخ يتصاعد من عقار بالقرب من الفندق الذي أقطن فيه، في الطابق الخامس والأخير من العقار، كانت امرأة معاقة ذهنياً، تجلس مع أبيها في حجرة بمنزلهما ويروي الأب وهو في حالة من الهلع والخوف الشديدين:

- سقط فوقنا ضوء قوي، فأغمضت عيني على الفور، وعندما فتحتهما وجدت الجزء الأعلى من جسد ابنتي محاطاً باللهب، وكأنه يخشى أن تفر منه فأحاطها بشكل لا تستطيع معه الفرار، وأسرع أخوها غير الشقيق يساعدني في إطفاء الجسد المشتعل. لقد ماتت ابنتي مشتعلة..

وانفجر في البكاء في حالة هستيرية لم يستطيع السيطرة على نشيجه وبكائه.

راح شقيق الضحية يدلي بأقواله للضابط وهو في حالة من الذهول:

- كانت النيران تخرج من فم أختي تصاحبها أصوات عالية، وكأنني أمام وحش خرافي ينفث النيران في كل مكان، أو إحدى الساحرات الشريرات التي تقهقه ضاحكة فيخرج اللهب من فيها كأذرع أخطبوط عملاق، راح يحتويها بين أذرعه ولم نملك لها الفكاك فقد قرر الأخطبوط الناري أن يصطحبها في رحلة لا عودة منها.

لم يكن لدي في هذه الليلة أي رغبة في النوم فما زالت صرخات الفتاة وتأوهاتها تملأ أذني وأمام عيني كومة من رماد باهت ومقيت.

رحت أطرح تساؤلاتي على دكتور «بسام»، وربما أكون قد طرحتها عليه مراراً من قبل، كنت أرى أنه ربما يكون لإدمان الكحول سبب في ذلك الاحتراق، ولكن دكتور «بسام» نفى ذلك و لم أقتنع إلا أن حسه كعالم وكباحث حتم عليه أن يثبت لي ذلك عملياً، فقام على الفور بتفنيد تلك النظرية من الناحية العلمية، وذهبنا إلى معمله، فوجئت به يحضر لحماً وقام بنقعه في الكحول بكميات كبيرة، وقام بتعريضه للحرارة الشديدة لكن لم يحدث الاشتعال، ونظر لي وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه، وراح يعقب إذا كنت تربط أنت وغيرك الاحتراق بالكحول، فهناك بعض ممن ماتوا نتيجة الاحتراق لا يتعاطون الكحول.

خيم علينا الصمت مرة أخرى، وكنت بالفعل أبحث في خلايا مخي عن تفسير منطقي وعلمي. انضم زميل للدكتور «بسام» يدعى «جميل فرحات» وهو يقول:

- ما رأيك يا دكتور بسام في وجهة نظر أخرى؟

- بكل سرور.

- إذا كنت ترفض مبدأ تناول الكحول من عدمه وارتباطه بظاهرة الاحتراق، فهناك ملاحظة أخرى قد تساعدنا في التوصل إلى الحل.

شعرت ببارقة أمل، وانتابني إحساس أننا على وشك الراحة، راح «جميل فرحات» يعرض وجهة نظره:

- أنا أعتقد بأن الدهن في الجسم قابل للاشتعال..

راح الدكتور جميل يستطرد في حديثه:

- ربما لاحظتما أن العديد من الضحايا كانوا من زائدي الوزن.

ضحك دكتور «بسام» وقال:

- كنت أتمنى أن تثبت لنا صحة نظريتك ونؤيدها، ولكن أثبت خطأ تلك النظرية أيضاً حيث إن هناك آخرين كانوا من ذوات الأجساد النحيلة فاحترقوا نتيجة الاحتراق الذاتي.

أسقط في يدي مرة أخرى ولم أكن وحدي هذه المرة لكن عزائي أن معي دكتور «جميل فرحات»، الغريب أن كلاً من دكتور «بسام» ودكتور «جميل» لا يشعران باليأس ولا يستسلمان كعادة العلماء، وكلما برقت لهم فكرة جديدة يدورون في فلكها حتى تثبت خطأها أو يصلان إلى الحقيقة التي يبحثان عنها.

-١٣-

انطلقت بنا عربة الدكتور بسام في طريق المطار لاستقبال سوزي العائدة من فلوريدا، ونحن في الطريق بادرته متسائلاً:

- هل تعتقد أن سوزي نجحت في مهمتها ؟

أومأ مؤكداً:

– بالتأكيد .. لقد اتصلت بها تليفونيا وأكدت لي أنها تمكنت من الحصول على الجهاز.

– عظيم.. معنى هذا أننا سنبدأ التجربة على الفور. معنى هذا أننا سنبدأ التجربة على البطارية القديمة للغواصة.

كان العمال يعملون ليل نهار محاولين إحداث كرات البرق من جديد في ظل المختبر وتحت مقاييس معملية، أجريت التجربة أكثر من مائة مرة دون أن تحقق الهدف المنشود، وفي كل مرة يعود الفريق متعباً، لكنه يعاوده الأمل من جديد في اليوم التالي.

حاول فريق العمل أن يستخدم مفاتيح السرعات، إلا أن البعض كان يخطئ في استخدامها بالرغم من تحذيرات دكتور «بسام» من الاستخدام الخاطئ لمفاتيح السرعات بالغواصة.

أخيرا حانت الفرصة و جاءت المكافأة في النهاية، لتكلل مساعينا بنجاح التجربة، وجدنا ألسنة من اللهب تخرج من مفاتيح الغواصة وتتحول لكرة من اللهب تعالت الهتافات والضحكات ولكن أعقبتها صرخات واستغاثات، لقد تحولت ألسنة النار إلى كرة ولكنها لم تكن كرة البرق التي نحاول تحضيرها في المعمل، وبرغم أننا استطعنا السيطرة على حالة الذعر والهلع التي انتابت العاملين إلا أن الخسائر كانت كبيرة فلقد أصيب بعض العاملين بحروق في سيقانهم.

برغم ما حدث إلا أن دكتور «بسام» كان متفائلاً أن التجربة تسير في مسارها الصحيح ولكن لا بد من الجهد المتواصل والصبر حتى

يتحقق ما نتمناه، كان الجميع يرى عكس ذلك فلقد هجرنا الأمل من أن ترى هذه التجربة النور.

أصر دكتور «بسام» على مواصلة التجربة، في نفس الوقت وصلت له رسالة من إدارة الموقع الذي نعمل به والذي توجد به البطارية، يطلبون فيه إخلاء الموقع لإقامة مشروع بحث علمي آخر، لم يكن لدينا وقت للتفكير على الإطلاق حيث كان البلدوزر يتأهب أسفل المبنى لبدء عمله بمجرد مغادرتنا.

راح فريق منا يلملم الأدوات والمعدات، وكمحاولة أخيرة يائسة لإضافة جو جديد حول مفتاح السرعات فصنعوا صندوقاً صغيراً من السولوفان حول المفتاح و دفعوا فيه بقدر قليل التركيز من غاز الميثان. كان تقديرهم أن ذلك القدر القليل من الغاز لن يؤدى إلى اشتعال النار و مع ذلك ولحسن حظهم أنهم كانوا لحظة إجراء التجربة يتجمعون خلف أكياس من الرمل. عند تشغيل المفتاح اندفعت ألسنة من اللهب.. علا هدير الرعد و كل ما أدركوه ساعتها أن سقف المكان قد طار فى الهواء.

تصور الجميع أن ذلك الحادث سوف يضع نهاية فاشلة لتجاربهم لكن عندما شاهدوا الأفلام السينمائية التى التقطتها آلتا التصوير السينمائي والموضوعتان بزاويتين مختلفتين بالحجرة شاهدوا الأفلام بعد تحميضها دهشوا للنتيجة و تغير رأيهم فى حصيلة تجاربهم فعلى مدى حوالى مئة إطار أو كادر سينمائي شاهدوا كرة مضيئة قطرها حوالى ١٠ سنتيمترات. و يؤكد الدكتور «بسام» أن هذه الكرة المضيئة تثبت أنها ليست نتيجة عيب فى الفيلم. وإنما ترتبط بشكل ما بظاهرة كرات البرق.

حاول دكتور «بسام» أن يصنف خواص كرات البرق وقد تمكن حتى الآن من عزل بعض الحقائق الهامة التى يمكن أن تكون ذات قيمة كبيرة فى بحثه حول هذه الظاهرة. من بين هذه الحقائق أنها تتحقق عادة فى أعقاب العواصف البرقية العادية و أن كرة البرق قد يصل قطرها الى ١٥ سم فى المتوسط و يتراوح لونها بين الأصفر و الأحمر وهي لا تكون ساخنة و غالباً ما يصدر عنها ما يشبه صوت الفحيح. مع أن دكتور «بسام» يميل إلى إرجاع الظاهرة إلى ردود فعل كيميائية إلا أن الكتابات العلمية الأخرى حول كرة البرق تحفل بالعديد من التفسيرات المتناقضة إلا أنه كان مؤمناً بأن من بين هذه الظواهر ما يطلق عليه ظاهرة الاحتراق التلقائى للجسم البشرى و يرى أن هذه الظاهرة قد يرجع حدوثها الى اصطدام الجسم البشرى بواحدة من كرات البرق. و أن كرة البرق تؤثر على الإنسان بنفس الطريقة التى يعمل بها فرن الميكرويف و الذى ينضج ما بالداخل دون أن يؤثر على السطح.

-١٤-

كان شغلي الشاغل طوال هذه الفترة، البحث في كل ما ينشر عن تلك الظاهرة، لم يكن هناك رأي يمكننا الأخذ به حتى الآن، ولم يعد الأمر بالنسبة لي مجرد تغطية حادثة أو غيرها مما يغمض علينا، ولكن كنت أريد أن أعرف ما وراء الحدث، زادت الصلة بيننا نحن الأربعة وكان كل من دكتور «بسام الشندويلي» ودكتور «جميل فرحات» وسوزي يشركونني معهم بالرغم من إنني لست متخصصاً.

دعاني دكتور «بسام» لحضور مؤتمر علمي لمناقشة تلك الظاهرة، وقال إن هناك بعضاً ممن جاؤوا بتفسيرات جديدة ربما توصلنا لتفسير علمي. كنت كالعاشق الولهان الذي ينتظر موعداً مع محبوبته ويأبى الوقت أن يمر، ورحت أقرأ كل ما كتب عن الموضوع قبل حضور المؤتمر.

خرجنا من الفندق أنا والدكتور «بسام الشندويلي» و سوزي ما إن أتى الأتوبيس الذي يقلنا إلى قاعة المؤتمر حتى لاحظنا انتشار أناس ملامحهم غريبة تتسم وجوههم بالصرامة، وحركة غير عادية في الأتوبيس من إغلاق للنوافذ والأبواب وإسدال الستائر، حاولت سوزان أن تفتح النافذة فلقد شعرت باختناق خصوصاً أن التكييف لا يعمل، لكنها فوجئت بالرفض من قبل أحد الأشخاص الذي يقف بجوار مقعدها.

بدأ الشك يساورني، خصوصا عندما انحرف السائق بنا في طريق عكس اتجاه المكان الذي يعقد به المؤتمر، واستولوا عنوة على الحقائب التي معنا.. راحوا يفتشون بكل دقة حقيبة دكتور «بسام» ومساعدته «سوزي» ومما أثار حفيظتهم أنهم لم يجدوا شيئاً

أدركت أننا وقعنا في شرك لا فكاك منه، فقد بدا واضحاً أننا مقتادون لجهة غير معلومة، حتى عندما حاولت الحديث مع أحد الرجال لمعرفة إلى أين نحن ذاهبون، وماذا يريدون منا أشار لي بالصمت دون أن ينبس ببنت شفة، ظللنا سائرين وسط أحراش كثيفة ومناطق وعرة أحياناً تنقلنا إلى مناطق جبلية وصحاري قفر، فجأة

التقطت أسماعنا صفارات الإنذار، وجه الرجال، وراحوا ينظرون من نوافذ الأتوبيس وفي لحظة واحدة أحاط بنا عددٌ من عربات الشرطة وأمروا السائق بالتوقف، واندفعوا داخل الأتوبيس وقبل أن يُبدوا أي مقاومة كان قد تم القبض على المختطفين عرفت بعد ذلك أن التي قامت بإبلاغ الشرطة هي ماهيتاب.

ونحن في طريقنا إلى المؤتمر اقترب مني الدكتور بسام وهمس في أذني:

- أعرفت كم ظلمت ماهيتاب لولاها لكنا ضحايا هؤلاء الإرهابيين وليس هذا فقط فهي التي أبلغت الشرطة وقد حاولت العصابة تجنيدها لسرقة الملف الخاص بي ولجمع معلومات عنا فأبت وقد أخبرتني بكل شيء وعندما رايتها خارجة من حجرتي كانت تبلغني بأمر هذه العصابة.

وصلنا إلى المؤتمر على وجه السرعة بعد مرور ثلاث ساعات على موعد بدئه، عندما دخلنا القاعة ضجت بالتصفيق وتوافدت وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون تسأل عما حدث واستطاع الدكتور بسام أن يسيطر على القاعة بهدوئه وابتسامته العذبة.

بدأت الحلقة العلمية والجميع ينتظر، هل بالفعل ستسفر عن شيء حقيقي، كنت قد أعددت ملفاً كاملاً يحتاج في النهاية لخاتمة الموضوع والتفسير المنطقي سأقدمه للجريدة، ومن الرائع أنه قد تعددت النقاشات ووجهات النظر المختلفة ففوجئت بأحد الصحفيين يقول:

في أغلب المؤتمرات والحلقات العلمية يبدأ المتخصصون أولاً، ولكننا هنا سنبدأ بكل الأطراف غير المتخصصة لنترك العلماء في النهاية يجيبون على تساؤلاتنا ولكن من وجهة نظري الشخصية والتي قد تبدو غريبة بعض الشيء.. «هناك لغز واحد أسال عنه فالاحتراق الذاتي الذي تبدو بعض الحالات وكأنها تتحدى الواقع بتفسير غير منطقي، يترك لي شعوراً مخيفاً وغير علمي، فالجميع يريد أن يعلم ما هو الاحتراق الذاتي، وما طبيعته ولكني ببساطة لا أريد أن أعرف».

ثارت القاعة وعجت بالأصوات والهمهمات، ما بين مؤيد ورافض، غير أنه ارتفع صوت آخر يدحض الظاهرة من أصلها بقوله:

نحن نرى أنه من خلال تلك الأبحاث بأن السبب الحقيقي وراء الاحتراق الذاتي، هو أن مجموعة متفجرة من المواد الكيميائية يمكن أن تنشأ في النظام الهضمي بسبب حمية سيئة، وذلك من خلال غاز الميثان الذي يتكون في الأمعاء، وهو ينتج من تحلل النباتات، ويسمى بغاز المستنقعات كما أنه هو المسؤول عن الاحتراق. فالتفاعلات الإنزيمية في الأمعاء، هي بروتينات تقوم بدور المحفز، فتعمل على تنشيط التفاعلات الكيمائية في الجسم.

أجاب أحد المتخصصين:

– أنا مع النظرية المفسرة لتلك الظاهرة بنظرية الفوسفاجين، والفوسفاجين هو مُركّب مثل النيتروجليسرين، ذو التركيب الماص للحرارة. وهو يتكون في نسيج العضلات و يمد الجسم بالطاقة الطبيعية اللازمة له خاصة أثناء ممارسة التدريبات الرياضية القاسية. وتحت

ظروف معينة ترتفع نسبة هذا المركب في جسم الإنسان مما يجعله مادة قابلة للاشتعال يحترق مثل البارود الرطب.

اعترض البعض على تلك النظرية متعللين بأن الجسم قد يصبح قابلاً للاشتعال و لكن من أين أتت المادة المساعدة على اشتعاله في مائتين وخمسين من الحالات التي أصيبت بالاحتراق الذاتي ؟!. ربما لو وفقنا بين نظرية الفوسفاجين و بين الأشعة الكونية الساقطة على الجسم لكانت تلك الأشعة هي المادة المساعدة على الاشتعال.

انبرى أحدهم:

- أحدث الآراء العلمية و أكثرها قبولاً هو الرأي الذي يرجع الاحتراق الذاتي إلى تفاعل خلايا البلازما في جسم الإنسان. و البلازما هي الحالة الرابعة للمادة بعد الصلبة و السائلة و الغازية. تحرك خلايا البلازما يولد الكهرباء و يصنع ما يشبه الدوائر الكهربائية حيث يحيط بكل خلية بلازما طبقتان تحمل كل طبقة منهما شحنة كهربائية مختلفة عن الأخرى و تعمل تلك الطبقات كمكثف يخزن الطاقة. تلك المكثفات الكثيرة قد تنفجر عند أي خلل يعوق التفاعل الكيميائي الطبيعي في جسم الإنسان. اعترض معظم الباحثين الذين تواجدوا في قاعة المؤتمرات وكان من بينهم دكتور «جميل فرحات»:

- هذا التفسير غير منطقي، لا يتفق مع وجود حالات الاحتراق التلقائي، لقد احترقٍ الجسد من الخارج فقط دون الأحشاء، ولو كان هذا التفسير مقبولاً، لبدأ الاحتراق بالداخل.

أجاب أحدهم:

– الرأي الذي يقول بأن أي إنسان عرضة للاحتراق بطريقة غريبة، وبدون معرفة بظروف موته، أمر غير قابل للتصديق، لأننا نجهل كل الأسباب والشروط التي سبقت الحادث وأسبابه.

رد آخر:

– إذا كنا نتحدث بهذا المستوى العلمي البدائي، فنحن نعود لأكثر من ثلاثة قرون

عندئذ صعد رئيس المؤتمر الدكتور «بسام» وقال:

– إن الاحتراق الذاتي ببساطة لغز مخيف، لم تتكشف طلاسمه بعد، ونحن معاً اليوم من أجل الجديد، وربما نجد ضالتنا مع الفريق البحثي، مجموعة من الباحثين تبنوا وجهة نظر أو تفسير ربما يبدو مقبولا، لتفسير «SHC»،وهو اختصار للاحتراق الذاتي لقد لاقى استحساناً من الجميع قام أحدهم:

– لقد توصلنا من خلال تجاربنا على نظرية تصعيد الكهرباء الساكنة، أنها أنسب التفسيرات لهذه الظاهرة الغامضة، حيرتنا واحترنا معها حيث يعتقد البعض أن الإطلاق المستقر للكهربائية يمكن أن يتسبب لأي إنسان بالاحتراق الذاتي، وذلك لأنه يتم توليد حرارة داخلية كبيرة بسبب الكهرباء الساكنة.

عاد دكتور «بسام» ليكمل حديثه ووجهة نظره قائلاً:

لقد تم رصد جميع الحالات التي حدث لها ما يسمى بالاحتراق الذاتي، ومن خلال تحديد الوقت الذي حدثت فيه تلك الحوادث، وجد أن جميع هذه الحالات ترتبط بوقت معين ترتفع فيه الكثافة المغناطيسية للأرض، خلال اليومين السابقين على حدوث تلك الحوادث مما يؤثر على كل شيء في الأرض خصوصاً جسم الإنسان.

ساد القاعة هرج ومرج من الباحثين ومعارضات كثيرة وقال أحدهم:

- هذا هراء.. لأن المجال المغناطيسي الذي تتحدث عنه يا دكتور ضعيف للغاية.

أجابه الدكتور « بسام بثقة العالم الواثق من نظريته:

معك حق.. المجال المغناطيسي للأرض رغم ضعفه، يمكن أن تكون له من التأثيرات مالا يمكن التنبؤ بها، وغالباً لا تكون محمودة العواقب، كما إننا لم نصل بعد إلى شيء عن فهم الآلية البيولوجية، التي تؤثر بها المغناطيسية على الجسم البشري، ومن هنا يحتمل أن يكون الاحتراق الذاتي للإنسان هو نوع من التحلل الجزيئي أو الكيميائي، تشعل شرارته الأولى التغيرات المغناطيسية مما ينتج عنه طاقة حرارية مجالية. وبالرغم من ذلك فإن هذه النظرية تفسر جانباً من الظاهرة، وتظل بعض الجوانب خافية علينا مثل ندرة حدوثها، وبقاء محدودية النار لما حولها من أشياء قابلة للاشتعال، وتظل بعض الأسرار خافية علينا تحير العلماء ليواصلوا البحث عنها .

وفي هذا المجال فإن بحثي مع الدكتورة «سوزان حكيم» يكشف اللثام عن خفايا مرعبة تنتظرنا خلال سنوات أو أيام أو ساعات قليلة لا أحد يدري..

صعدت الدكتورة سوزان إلى المنصة وفي ظل صمت كئيب ساد القاعة بعد أن اكفهرت الوجوه وغاضت البسمة من الوجوه راحت تقول:

– لا شك أن هذه الظاهرة تتحدى العلوم الطبيعية، لقد استهواني مبدأ سيطرة العقل على المادة وسأقوم بعمل التجربة عملياً أمامكم، قامت الدكتورة «سوزان حكيم» بتحريك قطع من الألمنيوم بعد أن وضعتها فوق كفها فاندهش الحاضرون ومن خلال ابتسامتها الهادئة راحت تقول:

– أليس ذلك دليلاً على المغنطة؟

هز الحاضرون رؤوسهم في إيجاب.

– ومن ناحية أخرى حاولت أن أتخذ طريق اليوجا لتنمو الكهرباء البيولوجية في جسدي، فأحسست بتيار قوي يجتاز رأسي وينخفض الى أجزاء منه، ولقد استطعت تحريك صندوق حديدي متدل من السقف من مكان بعيد، وقامت سوزان بتشغيل فيديو يبين ما قالته بالفعل، وهذا دليل قوي على أن تمارين اليوجا تولد في الجسم طاقة كهربائية قوية مصدرها العقل.

أمام كل ما قدمته من أدلة كنت أتمنى أن أبشركم بشرى سارة ولكني صعدت إلى هنا اليوم لأحذركم من تعرض العالم لعاصفة شمسية مدمرة تقترب من كوكبنا فعندما تبدأ الشمس في الرحيل عن نهار أحد الأيام المقبلة في سبتمبر ربما في عام ٢٠١٢ أو ٢٠٢٣، ستكون البشرية جمعاء على موعد مع حدث تاريخي لا يسبق له، ومن المنتظر له أن يلقي بظلاله على كافة المستويات وسيظل بشكل كبير يؤثر على كثير من الأمور في حياتنا

في تلك الليلة سيكون سكان العالم في حالة من الرعب، التي تكتظ فيها السماء المعتمة آنذاك بوهج ناري لم يسبق له مثيل لأنهم سيكونون على موعد مع كارثة حقيقية تهدد بعودة سكان الكوكب إلى عصر القرون الوسطى نتيجة للعواقب الوخيمة التي ستترتب على تلك الكارثة، والتي ستتجسد في صورة عاصفة شمسية مدمرة للغاية !!

تدخل دكتور «بسام» يكمل ما قالته مساعدته وتلميذته دكتورة «سوزان حكيم».

- بالفعل في الوقت الذي قد يدهش فيه بعضكم من فرط نبرة التشاؤم التي تسيطر على التحذيرات السابقة، إلا أنها وبكل أسف حقيقة مريرة نزيح النقاب عن كامل تفاصيلها اليوم أمامكم ونضع بين أيديكم أن هذا اليوم المزعوم سوف يشهد مجموعة من الظواهر الكونية والبيئية الغريبة، من بينها انتشار أعمدة لتموج أخضر وهاج يشبه الأفاعي السامة العملاقة في السماء و ستلوح في الأفق تموجات برتقالية متلاحقة. وبعد مرور ٩٠ ثانية، سوف تبدأ الأضواء في الزوال.

لكنها ليست الأضواء الموجودة في السماء لأنها ستظل متلألئة حتى فجر اليوم التالي، لكن الأضواء التي ستخفت هي الأضواء الموجودة على الأرض.

استكملت دكتورة سوزان مرة أخرى الحديث:

ليس هذا فقط كل ما سيحدث ولكن في غضون ساعة واحدة فقط، سوف تغيب الطاقة الكهربية عن أجزاء كبرى من الأرض. وقبل منتصف الليل ستصاب كافة شبكات الهواتف المحمولة بأعطال، كما ستصاب شبكة الإنترنت بالشلل التام. وستشوش المحطات التلفزيونية، سواء كانت أرضية أو فضائية، كما ستصاب المحطات الإذاعية بحالة من السكون. وقبل حلول ظهر اليوم التالي، سوف يتضح أن أمرًا جليًا قد وقع وأن العالم المتحضر قد بات يحتضر لتحل الفوضى محل النظام والارتباك. وتتناثر جثث الموتى في كل مكان لا تجد من يقوم بدفنها.

تدخل أحد الصحفيين بصوت أوشك على البكاء :

- هل هي نهاية العالم؟

رد دكتور «بسام»:

- إن الانحراف القطبي يحدث كل ست وعشرين ألف عام مصحوباً بآثار مدمرة تشبه بالفعل نهاية العالم ومع الأسف ليس لدينا تاريخ مدون لأحداث جرت قبل ست وعشرين ألف عام. لكن من بين هذه

الآثار المدمرة الاحتراق الذاتي، أما الآن نستطيع أن نرجع كل ما حدث من تلك الحالات من الاحتراق الذاتي لهذا الانفجار الشمسي الذي حدث في مكان ما على الأرض وفي طريقه إلينا، فما حدث وسيحدث ما هو إلا مظهرٌ من تلك المظاهر التي تنذر باقتراب وقوع الكارثة.

في غمار تلك الأحداث السيئة، تبقى هناك بارقة أمل ومن هنا أعلن عليكم اليوم حصاد أكثر من عشرين سنة من العمل المتواصل لأضع بين أيديكم ما يؤمنكم قنبلة نووية من رماد بشري، ومن هنا أرفع شعاري «رماد من أجل السلام».

-١٥-

خرجت من القاعة التي تموج هرجاً ومرجاً، وقد شملتنا عاصفة قوية من الفزع، وقد أدركت أن النهاية قادمة لا محالة، وأن الشرارة التي أشعلت جسد جانيت ما زال طرفها يتوهج في جسدي وأن الأنفاس صارت معدودة قادتني قدماي إلى حجرة ماهيتاب بالفندق وقد ندمت على سوء ظني بها فلولاها لكنا متنا جميعاً على يد افراد العصابة ولا أدري لماذا تذكرت الآن مهسوري البريئة التي ظلمها الناس، ما إن فتحت لي الباب حتى قلت لها:

- ماهي تتزوجينني؟

تعلقت بوجهي لا تدري ماذا تقول، أحسست في وجهها بالتردد لكن عينيها البراقتين كانتا تقولان الكثير، لفت نظري زرقتهما الحانية التي

أخذتني في عالم لم تطأه قدماي ولم تره عيني ولم تسمعه أذني ولم يعه عقلي، حتى الكلمات التي انسابت على شفتي، لم ترد من قبلٍ في قاموس المحبين. ووجدتها تهز رأسها هزتين رقص لها قلبي طرباً ولم أدر بنفسي وأنا اندفع نحوها وأضمها بقوة وألثم جبينها، ولمحت في عينيها دموعاً.

كنت أتمنى أن يكون حفل زفافنا في مصر لكنني خشيت أن يتوهج جسدي في الطريق بين لنكاوي والقاهرة.

لم يكن مجرد حفل زفاف ولكن كان بمثابة وداع لكل الأصدقاءِ وفريق العمل، فلقد شعرت أنني واحد منهم، ارتبطنا جميعاً شهوراً طويلة وصرنا كالعائلة الواحدة. كان من الصعب علينا أن نفترق ولكنه عهد صداقة يتجدد وكان الشاهد على هذا الميثاق هو زواجنا فقد كان هو الرابط والميثاق مع كل الأصدقاء.

كان في وداعنا بالمطار دكتور بسام الشندويلي والدكتور جميل فرحات وسوزي.. تألقت «ماهي» كالملائكة ترفل في فستان أبيض، عيناها الزرقاوان تعكسان تألقاً أخاذاً فأشعر أنني ارتاد سفينة فضائية أسبح بها في عالم هادئ.

سألتها:

- أسعيدة بهذا الحب؟

أجابتني:

– كيف لا أكون سعيدة وأنت الحب ذاته رأيت فيك رجلاً كنت أحلم به طيلة عمري ولم ألتق به إلا اليوم فقط.

ابتسمت وقلت لها:

– دائماً السعادة تبدو متنكرة في ثوب الشقاء فالحب يبدلنا فجأة ويشعل في صدورنا حوافز البطولة والجهاد، فإذا كنا فقراء لم تروعنا الفاقة، بل هزأنا بالبؤس وتحدينا القدر. وإذا كنا بلهاء تفتقت أذهاننا واضطرمت فيها شعلة الفكر، وإذا كنا كسالى سرى الدم الحار في عروقنا، وأقبلنا على العمل بعزم الجبابرة. هكذا نؤكد بالحب وجودنا ونؤكد استحقاقنا للحياة، ونرفع قربان العمل والجهاد إلى هيكل محبوبنا وهيكل الحياة.

– لكني أريد أن أسألك حبيبتي أي لون من ألوان الحب تحبين؟

نظرت إليَّ بعينيها الزرقاوين وقالت:

– يا لك من خبيث ماكر تود أن تسمعها بكل شكل، وترسمها بكل لون لكني لن أبخل عليك الليلة بشيء، فقد ادخرت مشاعري وحبي وقلبي لمن أحب وها أنا أمنحها لك بسخاء فأمامك الكثير فلتنهل منه.

قلت لها:

– أنا في الحقيقة عطشان ارتمى في صحراء مقفرة، وآن الأوان للارتواء من نبع الحب وأنت نبعي ونهري لكنك تراوغينني في الإجابة:

- لا .. أبداً .. الحب له ألوان كثيرة، فبعضنا يحب بخياله وفكره فقط، وبعضنا الآخر يحب بقلبه وعواطفه، والسواد الأعظم يحب بحواسه وغريزته فقط.

- وكيف ترين الحب الكامل؟

- الحب الكامل الذي تلتقي فيه جميع هذه القوى، فشيء رائع ونادر وهذا هو السر في تهالك الناس عليه منذ الأبد.

طبعت قبلة على جبينها، فاستسلمت لها وأرخت سدولها فكأنما أطبقت على كل الماضي بما فيه من وجع وأنين وقالت لي:

- هل عرفت أنني أحبك حباً كاملاً

قلت لها:

- أريدك أن تحبينني حب «ماهي» وليس حباً كاملاً.

أشرقت ضحكاتها كشمس مشرقة على واد، فتحول في الحال لواحة خضراء وسماء صافية أزالت مسحة الحزن المتعاقدة مع قسماتها ..

فاجأنا طاقم الطائرة بتقديم تورتة للعروسين وجاء الكابتن ليحيينا، وعزفت الموسيقى أعذب الألحان وتوافد الجميع لتهنئتنا وانطلقت الزغاريد من المقاعد المحيطة بنا.

قالت لي:

- لا أصدق أن الدنيا تبتسم لي تلك الابتسامة الواسعة فلم أتعود ذلك منها أبداً في أي وقت مضى.

ضحكت وقلت لها:

- هكذا الدنيا يا حبيبتي يوم لكِ ويوم عليك،-سأعود إليك حالاً يا حبيبتي.

استأذنتها لبعض الوقت، وأنا أشعر بوجهها الحبيب يتخايل أمامي، لن أخذلها حتى آخر العمر سأظل أحبّها وأراعيها حتى النفس الأخير.

كنت أغسل وجهي في أحد حمامات الطائرة، عندما تناهى إلى سمعي صوت صياح وصراخٍ، شعرت بانقباض في قلبي، عدلت من هندامي وخرجت مسرعاً، لأجد الجميع حول مقعدينا عندما اقتربت من مكاننا بالطائرة شعرت بحرارة شديدة، حاولت تفريق الجمع ووجدت المضيفة تحاول إطفاء النيران المشتعلة لكن دون جدوى، بحثت عن ماهيتاب وجدت فستان زفافها الأبيض وطرحتها على المقعد، لم أفهم ما حدث إلا عندما وجدت حذاءها وجزءاً من قدمها أسفل المقعد فلقد تلاشت ماهيتاب واحترقت ككرة من نار يلفها حزام أزرق اللون. بينما تدلت سلسلة تحمل فصاً أزرق اللون..

كأنّما كانت السلسلة تنظر لي في صمت ينم عن شجن دفين، كأنها تقول هل عرفت قصتي؟

الخالة ريحانة

يا لصوتها الشجي.. تشعر وأنت تستمع إليه كأنه خارج من أديم الأرض، تلمس في رنته رنين صخور الصحراء وهي تصطك ببعضها، كأن الجبال صبغتها بصبغتها الداكنة فصارت جزءا منه.. لكنني استطعت أن أستشعر هذه الترنيمات الحزينة الشجية، كأن كلماتها التي لم أفهم معناها هي عزف للحن حزين على تلك الآلة التي تقطع نياط القلوب.. الناي.. امتزج نشيجه مع صوتها الحزين ليعزفا معا لحنا واحدا.

هذه هي «الخالة ريحانة» بوجهها الأسمر سمار الجبال الشاهقة التي تحيط بنا وقد لفحتها أشعة الشمس، وغريب أن تلفح الشمس وجها لا يرى كلاهما الآخر إلا عابرا.. ربما تكون الشمس قد تسللت خفية إلى حجرتها لتنصت إلى صوتها الشجي، أو لتشم زهور الريحان..

أما الخالة ريحانة.. وهذا ليس اسمها الحقيقي، إنما أطلقناه عليها لزهور الريحان التي تخفيها خلف أذنيها.. تميزت بهذه الرائحة التي تعبق المكان فتملأ نفوسنا انشراحا وإقبالا على العمل، عرفناها بها منذ أن تدخل من باب المستشفى التي أعمل بها في تلك المنطقة النائية، فما إن تأتي في الصباح لتنظيف مكاتبنا حتى يفوح عطر الريحان ليتضوع بعرفه المكان.

- كيف حالك يا عواطف؟

هكذا كانت تناديني «الخالة ريحانة» بلا ألقاب، بالرغم من أن جميع العاملين بالمستشفى من أصغر عاملة إلى المديرة لا ينادونني بغير «الدكتورة» .. إلا الخالة ريحانة، واعتدت منها ذلك.. فزهور الريحان تشفع لها..

صارت الخالة ريحانة جزءا منا، بل صرنا جزءا منها.. حتى شكواها المتكررة التي تبثها إلينا من خلال ترانيمها وأغنياتها الحزينة.. كنا نلتف حولها ونستمع إليها في شغف وإعجاب.. فتارة الصداع اللعين الذي لا يفارقها.. وأخرى بذوراتها « أبناؤها « الذين تزوجوا وفارقوها.. وثالثة تنعي الزمن الذي ولى ومر من أمامها دون أن تدري به.. تاركا آثاره القاسية على شعرها الذي خطه الشيب ولم تفلح الحناء في إعادته كما كان.. وجهها الذي أصابته التجاعيد أسنانها التي سقطت قبل الأوان كأوراق الخريف الذابلة، وتحايلت عليها بأسنان ذهبية كانت تشاركها الابتسام إذا ابتسمت، فتلقي بأشعة ذهبية على وجهها النحيل فتحيل وجهها الشاحب إلى لون النهار تحت أشعة الشمس..

– ماذا بك يا خالة ريحانة؟

سألتها ذات يوم عندما وجدتها تجلس في حجرتها الصغيرة بالمستشفى مكفهرة على غير عادتها، واضعة إحدى يديها على خدها والأخرى تمسك بزهور الريحان كأنها تبثها شكواها.. هزت رأسها بأسى وقالت بصوت حزين

– أصعب شيء على الإنسان يا ابنتي عندما يجد المياه تهرب من بين يديه قطرة قطرة دون أن يكون له أي إرادة للاحتفاظ ولو بقطرة.

- كل إنسان لابد وأن يأخذ نصيبه غير منقوص يا خالة.

- أجل.. ولكن ماذا تقولين في حصان عجوز يريدون أن يضربوه بالرصاص لا لشيء إلا لأنه شاخ وكبر وأصابه العجز.

تسكت قليلا لتقول بعين دامعة:

- عندما تشعر الأفيال بدنو أجلها فإنها تذهب إلى المقبرة بأقدامها.

- أول مرة أراك تتحدثين بهذه الطريقة.. لا تكوني متشائمة يا خالة.. هيا فضفضي.. قولي ما الذي يحزنك.

- لا داع لأن أنبش الجراح فتزداد اتساعاً.. دعيها مغلقة على أصحابها..

رحت أواسيها:

- نحن الذين بأيدينا نذيب الأحزان ونخفف الجراح عن المرضى.. ألا نستطيع أن نعالج أنفسنا..

- كيف يا ابنتي ومرضنا فينا.. إنه الزمن..

- إذن فلنصادق الزمن بدلا من أن نحاربه.. نتصالح معه ونصالحه خيرا من أن نسبح ضده.. فليس بأيدينا العودة إلى الوراء.. كذلك لا نستطيع أن نوقف عجلة الزمن..

- وهل يستطيع أحد يا عواطف أن يوقف سَريان الزمن.. إنه يجري

مسرعا كالقطار الجامح ونحن وراءه لا نستطيع أن نوقف سريانه ولا يمكننا اللحاق به..

ضممتها إلي وأنا أقول:

- خالة ريحانة.. لقد تعودنا على ابتسامتك الجميلة وصوتك الشجي.. أرجوك لا تحرمينا منهما..

هزت رأسها وعادت تترنم بأغنياتها الحزينة ونحن نردد وراءها..

شيء مزعج للغاية أن يأتي يوم بدون الخالة ريحانة، فقد تغيبت في اليوم التالي وأدركنا جميعا أن السبب حالة الاكتئاب التي انتابتها بالأمس.. ولكن أن يمر أسبوع كامل دون أن تحضر أو حتى تبلغنا. فبالتأكيد في الأمر شيء.

لا أدري ما الذي دفعني إلى الذهاب إليها، ولم أجد تفسيرا لهذا الهاجس الذي راح يلح عليَّ طول الطريق للبحث عن بيتها.. لعلها زهور الريحان التي كنت أشمها طول الطريق إلى بيتها، وكأن الطريق يقودني إليها..

لم أتعب في البحث عن بيت الخالة ريحانة، فقد اكتشفت أنها أكثر شهرة من الطريق ومن الجبال ومن زهور الريحان.. وكنت طول الوقت أبعد عن مخيلتي مشهدا أخشى أن أراه، وحمدت الله أن خيب ظنوني إذ فوجئت بالأنوار تملأ المكان كأنه عرس، وأصوات غناء من الداخل تبينت منه صوت الخالة ريحانة تصيح في سعادة بصوتها المميز وبحتها الرخيمة.. كانت تعطي أوامرها لبعض الفتيات:

– هيا أسرعن.. ركبا الستائر وافرشا السجاد.. فقد أوشكا على الحضور..

عندما التفتت ورأتني لم تصدق نفسها وضمتني إليها في ود فشعرت كأنني غرقت في بحر من الريحان، ثم نزلت بي إلى الطابق الأرضي وفتحت إحدى الغرف وتقدمتني وهي تقول بفرح:

– تفضلي يا عواطف.. هذه غرفتي..

دخلت خلفها وأنا أتأمل حجرة نومها في دهشة وإعجاب معا ورحت أقول:

– لو لم تقولي لي إنها حجرتك لقلت إنها حجرة عروس في شهر العسل..

ضحكت في مرح وقالت:

– هي فعلا حجرة عروس. فلم يمسها أحد حتى الآن..

ثم أخرجت من دولابها علبة مجوهرات فتحتها أمام عيني وقالت:

– اشتراها لي زوجي بالأمس..

– رائعة..

ثم أخذتني سريعاً إلى حجرة في الطابق العلوي. ونحن نصعد الدرج سألتها:

- إنني أتعجب لك يا خالة ريحانة.. فامرأة مثلك رزقها اللّه بزوج له مثل هذا الذوق العالي وهذه الرقة الشديدة. وتمر باكتئاب..

كنا قد وصلنا إلى الحجرة العلوية وفتحت لي الباب لأشاهد حجرة نوم تشبه تلك التي في الطابق السفلي تماما وسألتني:

- ما رأيك يا عواطف؟

- إنها مثل السفلية تماماً.

ضحكت ثانية وهي تعقب:

- أنا التي اخترت الاثنتين.. فكل شيء في البيت من ترتيبي أنا ومن صنعي أنا هذا المفرش الذي على السرير من عمل يدي، فهو يحب اللون الوردي.. وأنا الذي رتبت له حاجياته في الدولاب بهذا الشكل.. حتى العروس أنا التي اخترتها.. شابة حسناء مهذبة وبنت ناس.

- مبروك يا خالة ريحانة.. ربنا يتمم بخير.

رحت أجول ببصري في الغرفة لأجد زهور الريحان تملأ المكان، ولاحظت أنني أنظر إلى زهور الريحان فضحكت قائلة:

- إنه يهوى الريحان أيضاً.

شاركتها الضحك وأنا أقول:

- من الطبيعي أن يهوى الريحان.. أليس ابنك؟

انفجرت ضاحكة وهي تصيح:

- بل زوجي.

رحت أحملق فيها غير مصدقة، بينما راحت تقول:

- سواء أردت أو لم أرد سيتزوج، فليتزوج إذن بإرادتي أنا وبرغبتي أنا، واشترطت عليه أن يحضر لي مثلما سيحضر لها وأنا الرابحة في النهاية.

ثم صاحت ناهرة الفتيات:

- هيا يا بنات علقا الستائر وافرشا السجاد فقد أوشك العروسان أن يحضرا

وراحت ترقص وتغني وتزغرد بانفعال.. ثم مدت لي صينية الشربات:

- تفضلي شربات الفرح..

نظرت في عينيها فلمحت دموعاً انسابت رغماً عنها وسقطت على صينية الشربات.

الانسلاخ

أطلت برأسها من مكمنها الأثير.. تلفتت يمنة ويسرة.. ملأت صدرها بعبق الحياة الذي حرمت منه شهورا طويلة وهي حبيسة في باطن الأرض.. تمطت بجسدها الانسيابي.. قفزت بمهارة فوق سطح الأرض كأنها لاعبة سيرك محترفة وراحت تزحف برشاقة..

تمنت لو طارت مقلدة الفراشات والطيور التي تحلق حولها.. تمنت لو غردت مثلما كانت تغرد البلابل على الأغصان.. تمنت لو مشت على قدمين أو أربع مثلما تمشي الدواب على الأرض.. تمنت لو صرخت بأعلى صوتها لتعبر عما يجيش بداخلها من سعادة.. ما أجمل الحرية.. ما أبهج الحياة.. ولكن هيهات.. هيهات..

فجأة أحست بشيء يسري داخلها لم تستطع التعبير عنه.. بالرغم من أن الحياة قد منحتها هذا الفيض من الحرية فإنها مازالت سجينة في هذا العالم الرحب المترامي الأطراف، وأن مكانها الأثير في باطن الأرض كان أرحب بكثير.. راحت تجري هنا وهناك.. تقفز وتتمطى وتتلوى وتتثنى دون فائدة.. تنفست بصعوبة.. شيء يجثم على صدرها .. أهدابها تتحرك بصعوبة.. حاولت أن تتملص من ذلك الشعور الذي اجتاحها فجأة دون مبرر فلم تجد وسيلة للتخلص منه.. هل هي النهاية ...؟ أم هي بداية جديدة...؟

تمنت لو بكت.. لو صرخت.. لو نادت بأعلى صوتها .. أنقذوني مما أنا فيه أخرجوني من هذا السجن.. ارحموني من هذا العذاب.. لكنها الحياة.. أبت إلا أن تظل خرساء. لا تستطيع أن تبوح بما في داخلها ..

فجأة.. تمزق شيء بداخلها .. لا لم يكن بداخلها .. بل حولها .. إنه ذلك الغشاء السميك الذي يلف جسدها .. أطلت برأسها لتداعبها نسمات الحياة، عادت إليها أنفاسها، بدأ قلبها ينبض من جديد، عاد الأمل يراودها .

سرعان ما تخلصت من هذا الإطار الذي يحتويها ويعوق حركتها، أخذ ينحسر عنها شيئا .. فشيئا .. تلفتت يمنة ويسرة.. قفزت في مهارة.. عادت ترقص رقصة الحياة مخلفة العدم وراءها ثاويا في جلدها القديم، ومنحتها الحياة شعورا جديدا مع هذا الثوب الجديد .. أخذت تتلوى وتقفز في الهواء وتلف حول نفسها في استدارة كاملة وكأنها راقصة باليه متمرسة.

انتبهت فجأة على صوت يصرخ في أذني.. ويد تدفعني بعيدا .

- احذري.. العقرب.. العقرب..

جمدت في مكاني.. بينما راحت الأقدام تدوس ذلك العقرب الذي كان يقصدني. ودمعت عيناي.. تَلَفَّتُّ حولي متأملة هذا المكان الذي تركت بلدي ووطني من أجله.. جبال شاهقة تمتد إلى عنان السماء تحيط بي من كل جانب رمال صفراء صفرة الموت.. سماء ملبدة بالغيوم.. إلا إذا تسللت أشعة الشمس خفية في أحد الأيام.

شعرت بالاختناق.. تذكرت يوم تركت وطني مساء دون أن يأتي أحد لتوديعي وكأنني ورقة شجر جافة ذابلة لفظتها شجرتها وقت الخريف.. يومها شعرت أنني أنسلخ عن جلدي، تمنيت لو استطعت الخروج، وحسدت هذا الكائن الذي يستطيع أن يغير ثوبه كلما ضاق عليه.. ولكن هيهات.. هيهات.

رحت أحلم باليوم الذي أجد فيه نفسي عندما أعود.. ولكن ظل هناك شيء ما يجثم على صدري..

المؤلفة في سطور

د . عطيات أبو العينين: كاتبة قصّة ورواية وناقدة أدبيّة وكاتبة أبحاث في علم النفس ومقدمة برامج في الإذاعة والتلفزيون

دكتوراه في الآداب والفلسفة قسم علم النفس بمرتبة الشرف الأولى. و موضوعها «ديناميات الاختيار الزوجي وعلاقته بالمتغيرات النفسية والاجتماعية.

- عضو اتحاد كتاب مصر

- عضو نادي القصة القصيرة

أعمال منشورة:

١- أطفال حكموا العالم دار فرحة ٢٠٠٣م

٢- ضرتي مجموعة قصصية ٢٠٠٥م

- موسوعة أطفال حكموا العالم تصدر عن دار المعارف صدر منها :

٣- الاسكندر الأكبر ٢٠٠٦ م

٤- بطرس الأكبر ٢٠٠٦م

٥- بيبي والقزم دنج ٢٠٠٧م

٦- شبابنا بين غربة واغتراب صدر عن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م

٧- تيجان فوق رؤوءس صغيرة صدر عن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م

٨- الحاكم بأمر الله الفاطمي ٢٠٠٨م

٩- الإمبراطور المغولي الأكبر ٢٠٠٨م

١٠- مرارة المشمش مجموعة قصصية الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٨م

١١- بيبي قاهر الرمال روايات الهلال للأولاد والبنات ٢٠٠٨م

١٢-خمارويه والأسد زريق ٢٠٠٩

١٣-الناصر محمد بن قلاوون ٢٠٠٩م

١٤-مشرفة أينشتين العرب، دار الفاروق، سلسلة العلماء العرب ٢٠٠٩م

١٥- خنت كاوس: سلسلة نساء حكمن العالم دار المعارف ٢٠٠٩م

١٦- زنوبيا : سلسلة نساء حكمن العالم دار المعارف ٢٠٠٩م

١٧- الاغتراب والشباب : دراسة نفسية لمفهوم الاغتراب نشر بمجلة علم النفس بالهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م.

١٨- الطلاق مرض العصر: سلسلة اقرأ دار المعارف ٢٠١٠م

١٩- مهاتير محمد رائد النهضة الماليزية: سلسلة مشاهير دار الفاروق ٢٠١٠م

٢٠- مارك توين: دار صرح ٢٠١٠م

٢١- طعم الذكريات : مجموعة قصصية دار الطلائع ٢٠١٠م

٢٢- الزواج واختيار شريك الحياة: الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠م

٢٣- القزم الحزين: للناشئة الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠م

المحتوى

سيّدة العقارب ٥

مهسوري ٧٧

الخالة ريحانة ١٨٥

الانسلاخ ١٩٣

المؤلفة في سطور ١٩٦